بير الذهب

حكايات قرية وقصة حياة

رواية

حسام بشايره

Hussam Bashaireh

THE WELL OF GOLD

بير الذهب

حسام بشايره

بير الذهب

حسام بشايره

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو استنساخه أو نقله، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية دون الحصول على إذن خطي مسبق بالموافقة من المؤلف.

Copyright © All rights reserved to the author. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author.

الطبعة الأولى

٢٠٢٣

دار الخليج للنشر والتوزيع

الأردن: عمـــــان، العبدلي تلفاكس: 00962 6 464 7559

daralkhalij@gmail.com daralkhalij1998 daralkhalij

تتوفر إصداراتنا على: جملون Google play

بير الذهب

روايــة

حسام عبدالمنعم بشــــايره

بير الذهب

حكاياتُ قرية وقصةُ حياة

١٩٨٢ - ٢٠٢٣

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(4369 /2023/8)

عنوان الكتاب: بير الذهب

تأليف: البشايرة، حسام عبدالمنعم عبدالرحيم

بيانات النشر: دار الخليج للنشر والتوزيع، 2023

رقم التصنيف: 813.083

الواصفات: الروايات العربية//القصص الاجتماعية//الأدب العربي//العصر الحديث

- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978 – 9923 - 0 – 0770 - 9

الإهـــــــــداء

إلى ملهمـي ونـور طريقـي، مدرسـتي الأولى في الكرامـة والطيـب وعفـة الرجـال **والـدي العزيـز،** وإلى **الحنونـة أمـي**الـتي تعلمـت منهـا أن أكـون رجلا يستطيع أن يذود عن دمعها.

إلى كل مـن تتلمـذت عـلى يـده في العـلم والعمـل في كافـة منـاحي حيـاتي العلمية والعملية، مهما أهديتكم من عبق الكلمات لن أوفيكم حقكم.

إلى زوجـتي الـتي كانـت، ومـا زالـت الحبـل، والعصـا الـتي تهـش عـلى الأحلام، تحية لها ولكل فنجان قهوة رافقتني به بمسيرتي.

لأولادي؛ لعلهـم يعلمـون كم ضـاع مـني، وكم أجتهـد حـتى لا يضـيع مـنهم، وإلى إخـوتي الذيـن بهـم يشـتد العضـد، وكل مـن سـيجد في صيـدور ضـالة الفكرة وضائعة القلب، ولهفة الروح لي حتى أتحلل من إحرام ذاكرتي.

لكـــ أنت... ولجيـــل الثمانينيّات

و لكُلّ مَن فيْ قلبه حنين للماضي

مقـــــدمة

كلّ فجر جميل سبقه ليل مظلم، أو مُصفرّ بشيء من ضوء قنديل، أو بنجمة من السماء.

مع كلّ إشراقة شمس، هناك حبة قمح تنضج معتلية أواخر الأقصال بتاج من سنابل لا تطأطئ رأسها إلا إذا امتلأت، انحنت تواضعا بحبات قمح تكاتفت وما تفرقت، ترابطت وما يأست.

كان لنا من حُبّ تلك النملة للحياة دروس وعبر في المثابرة والتدبير؛ حيث تعلمت أن تواجه التحديات بثقة وإصرار، تذكر نفسها أن الحياة قصيرة، ويجب استغلالها بكل ذكاء واجتهاد؛ مدركة أن لحظات النضوج لا تأتي مرتين.

في أحضان هذه الحياة شخصان، قدّما كُلّ ما لديهما كشمعة دفء حين تشتد الريح العاتية، ونور الدروب المجهولة إن اشتدّ الظلام.

اختبرتهم صعاب الحياة في أيام كانت كالعواصف الجارفة؛ لكنّهما استمرا في العطاء المتراكم كالحبوب الذهبية في حقول الذكريات، تُذكرهما أن كُلّ لحظة تفنى، هي فرصة لصنع طريق تسهم في عبور المصاعب.

وبينما تتحرك الحياة بسرعة تركا أثرا عميقا في قلوب من التقوا بهما

إنهما "الأب والأم اللذان يرفعان شعلة الحُبّ والأمل مهما طالت اللّيالي وانقضت الأيام"

بير الذهب

حكاياتُ قرية وقصةُ حياة

١٩٨٢ - ٢٠٢٣

كــــان عصـرا جمـيلا مليئـا بالجـد والعطـاء، عنـدما كان أهـل قـريتي من الرّجـال العصـاميين في حيـاتهم، زرعـوا أرضـهم وبنـوا بيـوتهم مـن حجارتهـا وترابهـا وأغصـان شجرهـا وقصـبها، أسسـوا لنـا الحيـاة، ورحلـوا تاركـين بصماتهم في كل أرجاء القرية وبقاعها.

حمل كُلّ إنسان منهم ثلاث هُوِيات بحياته

هويـة أحـوال مدنيـة، وهويـة شخصـية، وهويـة صـوتية، ومـا إن رحـل بقيـت هويـــة الأحـــوال المدنيـــة الأســـاس في أســـمائنا، والشخصـــية في مـــكارم أخلاقنا، والصوتية في ذاكرتنا، كلما سمعنا باسم أحد منهم تَذكرنا صوته.

صـيدور قريـة أردنيـة ريفيـة، تقـع في لـواء الوسـطية شـمال غـرب محافظـة إربـد ... قريـة تمثـل حـال شـقيقاتها مـن قـرى الأردن بـين المـاضي والحـاضر، وعنـدما أقـول صـيدور فـإني أعـني بهـا كل قريـة أردنيـة تشـبهها مـــن الشـــمال إلى الجنـــوب ... قـــرى عـــاش أهلهـــا بـــذات الأصـــالة وذات الطوابع الاجتماعية والتراثية..

البدايــة مـن طفـل هـادئ ذي سـتة أعـوام شـاحب الوجـه ترتجـف يـداه، وتصطك أسـنانه اللبنيـة بـردا لحـين أن تلبسـه أمـه الـتي اسـتيقظت دون أي منبـه، جـرزة صـوف دافئـة غزلـت يـدويا، وجـرابا رويـمـة مـع حـذاء لهـا نصـف سـاق، كانـوا قـد اشـتروها مـن سـوق البـالة، وتحمـله بحقيبـة صغيرة فيهـا كتـب وقلـم رصـاص ودفتـر فـارغ؛ ليسـتعد لملئـه بـين جنبـات غـرف بُنِيَـت مـن اللِبن والطـين، وسـط بـلدة قديمـة تنـأى عنهـا التطـورات لتبقى بكل بساطة.

مصـروفه المـدرسي شـلن، وأدمـن لفـة الزيـت والدقـة اللذيـذة "الزعـتر" يكتفـي بمـا يحـرزه شـلنه مـن المقصـف مـن شـيبس الخـواتم والحلـوى الصغيرة، الـتي كان أغلبهـا عـلى شـكل حيـوانات صغيرة بطعم فاكهـة برائحـة تشـبه رائحـة تـلك الممحـاة الـتي كُلّـما اشـتمـها يتشـوق لحلـول الظهيـرة والمسـارعة لمطبخ أمـه الذي يعـج غالبـا، برائحـة الباذنجـان المخلـوط بالعـدس المسـلوق أو الرشـوف، أو فـول أخضـر قطـف مـن حقـل يجـاور بيتـه المنزوي بآخر قريته.

نعومة الأظافر لم تثن ذلك الطفل عن اتهامه بما كان يرتكبه غيره من مشاغبات قد تحدث الخراب بأملاك الغير في حارته البسيطة التي كانت تغفو باكرا؛ حيث لا فيس بوك، ولا إنترنت ولا يوتيوب، لكن كان هناك تلفاز شبه ملون، يعمل بشبكة صنعت من صحون ألمنيوم مطبوقة، لا يبث أيّ مسلسلات أو برامج وأغان بعد نشرة أخبار العاشرة من عَمّان، بصوت غالب الحديدي المختومة بـ " تصبحون على خير"، وصفرة طويلة تمتد للصباح؛ حيث يعاود استئناف بثه بأغنية "جيشنا العربي".

في يوم من الأيام، سمع هذا الطفل أن هناك حريقا شب بسيارة سوداء تحمل لوحة أرقام خليجية، كانت قد ارتطمت بصخرة تحت شجرة بلوط في بداية قريته، وعند منطقة تدعى بير الذّهب.

هرع كغيره من أطفال وشبان القرية؛ للاطلاع على هذا الحدث الغريب على قريتهم، حينها أثارت فضوله كلمة بير الذّهب، ظنا أنها بئر تنضح الذهب بدلا من الماء، وعند الاقتراب منها فإذا هي بئر خاوية بجانب شجيرة دوم مشوّكة وجافة.

وما لبث هناك دقائق قليلة إلا وبرجل اسمه عارف يناديه: "ابتعد ياولد لا تيجيك الغوله" سرعان ما أمسك الطفل بطريق قريته هاربا إلى حيث أتى، لكنه بقي يحوم بفكره حول بير الذّهب ونشأتها، وما تخفيه من أسرار وغموض، أخذ يسأل عنها هُنا وهُناك، لكن لا إجابة قطعية تفي بالغرض، منهم من قال: إنها كانت مستودعا للذّهب في حقبة قديمة تعود إلى عصر الرومان، ومنهم من قال: إنها بيت قديم لغول هناك.

طفل شقي لأبعد حد دون أن يعلم بهذه الصفة عن نفسه، وغالبا ما تنسب له أشياء لا يعرفها، ولم يرها من قبل.

هدم أطفال الحارة الكثير من وقاديات الخُبز واتهم وحوسب، سُكِب القمح من كوارة أحدهم، ودجاجات آخر تخطف بيضاتهن، اتهم وحوسب أيضا، والكثير من الأحداث التي تنسب له لم يكن يعلمها لكنه يعلم كيف يُحاسب عليها، ويُسمعونه كلمات كطنين النحل قرب شحمة الأذن لا تنسى، فهو الشقي المتهم، وعليهم محاسبته كفتى بالغ عاقل راشد.

ذات يوم التـزم البيت ولم يخرج أبدا، اتهم بهدم خُم للدجاج لأحد بيوت الحـارة، وأقسـم أنـه لم يفعـل، إلا أنـه حُوسِـبَ بعقـاب قـاس مـن بعضـهم بالـرغم مما قدمـه مـن أدلة، هـرب خائفـا مـن عقـاب أبيـه، وجلـس خلـف سـور مدرسـة البنـات القريـب مـن بيـتهم؛ ليلفتـه شـباك أحـد الغـرف مفتوحـا، اقتـرب منـه وكان مـن السـهل عليـه الدخـول إلى تـلك الغرفـة الـتي كانت تبدو أنها غرفة للمعلمات.

كانـت الفرصـة مثاليـة؛ لانتحـال صـفة المعـلم والتلاعـب بأداوتـه، فأمسـك بالقـلم الأزرق الملقـى عـلى دفتـر الحضـور والغيـاب، وقـام بتعبئتـه كامـلا ومـن بعـده دفتـر تحضـير دروس الرياضـيات الذي مـلأه بالأرقـام العشـوائية، وكـذلك دفتـر الإنجلـيزي الذي مـلأه بالحـروف الإنجليزيـة الـتي لم يكن يعرف شيئا غيرها في اللغة الإنجليزية في ذلك الوقت.

خـرج مـن تـلك الغرفـة بـكل سـلام بعـد جريمتـه الـتي لم يُعاقـب عليهـا حيـنما اسـتدعته مـديرة المدرسـة الـتي أخبروهـا مـن لم يـروه، أنـه المـتهم بـذلك، خرج بريئا مُصدَّقا فور قوله لها: أنا لم أقترب من المدرسة أو الغرفة.

أطلقت سراحه على الرغم من فعلته قائلة: لا يبدو عليك مشاغبا، فرح كثيرا أنه لم يحاسب على ذنب اقترفه فعلا، واستغرب عندما تذكر كيف حُوسِب على أشياء لم يكن على علم بها " **هذه حياة الأطفال في بعض المجتمعات البسيطة** " يلقون بأخطائهم على غيرهم خوفا من الحساب والعقاب الذي اعتادوا عليه ممن يكبرونهم وهي نتيجة ما قد يجهله الكثيرون في التعامل مع الأطفال، من خلال دبّ الرعب في نفوسهم وتخويفهم بدلا من تعليمهم الصواب من الخطأ بل استخدموا ضد الطفولة كلمات مرعبة، بقيت من أجمل الذكريات في نفوسنا، علمونا الخوف من الحطوطة التي بجيبة الحاجة آمنه المصطفى، والغولة ومطهر الأولاد، حتى ننام باكرا أو لا نقوم بفعل شيء يغضبهم.

كان أصعب ما قد نعيشه في طفولتنا هو أن يخاطبنا الكبير كما يخاطب شخصا بسنه دون أن يلتفت إلى أننا لا نعي ما فعلنا، ولا نعي ما يغضبه، ويعتبرنا موازيين له بالفكر والمعرفة والنضوج، **وهو أمر يجب أن نسعى إلى ألا يمرر إلى أطفالنا**، أو نعاملهم بذات الطريقة، لأنها ربما تخطف قلوبهم وبراءتهم سوية، وتمنحهم فرصة؛ للتدرب على الكذب للخروج من مآزق نسبت لهم، دون أن يعوها أو يعلموا شيئا عنها والغريب أننا حينما كبرنا، أصبحوا يخاطبوننا بلغة أصغر من أعمارنا، ما الذي عكس الأمور إلى هذا الحد؟ لا نعلم.

عـــام ١٩٨٢ جئنـا عـلى هـذه الحيـاة لا نحمـل سـوى بـكاء طفـل رضيـع، مـا كان يعـلم أن هنـاك عتبـات بيـوت سُـدّت أبوابهـا، وصـدأت أقفالهـا، تآكلـت أطراف شبابيكها، وبهت زجاج بندات أبوابها.

عتبـات هجـرت كراسـيها مـن جالسـيها إلى حيـث لا رجعـة، لكـن الحيـاة تواصـل أدراجهـا دونهـم، وكأنهـم لم يكونـوا، تركـونا خلفهـم كـما تركـوا أبنـاءهم من آبائنا وأمهاتنا.

لم يبـق مـنهم إلا أثـر طيـب، ومسـبحة قديمـة، ومنـديل قمـاش في جعبـة ذلك الثـوب، الذي تـرك معلقـا في خزانـة لم تفـتح منـذ زمـن بعيـد، وصـورة أو اثنتـان كانـوا قـد التقطوهـا لجـواز سـفر لأداء العمـرة أو الحـج أو لهويـة أحـوال مدنيـة عقـب التقاعـد، تركـونا وحقيبـة ذكريات لم نلحـق بهـا، لكـن ربمـا يعيـدها الآباء عـلى مسـامعنا مـرة مـن المـرات، إن رأوا مـن ذلك شـوقا وحنينا لمن رحل.

رحلوا وتركوا على جنبات صيدور كروما تحاكيهم في كل فصل من فصول السنة، نقرأ بتلك السناسل طلاسم حُبّ الأرض والمنجل والمفرش، وشوال خيش بخط أحمر.

تجعدت أيديهم كما تجعدت جذوع التينة والزيتونة بحكم العمر والاستعداد لرحلة الآخرة، هُنا كانوا ونحن هُنا الآن، وحيث هم الآن سنكون نحن... عبرة قصيرة بأن الحياة رحلة ومرحلة سريعة الزوال، لا يهم منها إلا الإجابة على ذلك السؤال**"عمرك فيما أفنيت، وعن شبابك فيما أبليت، وعن مالك من أين اكتسبت، وفيما أنفقت، وما عملت فيما علمت " .**

في رحم الأرض غرست أشجارهم، وبُذرت حبوبهم من القمح والشعير والعدس والكرسنة، وعلى سفوح جبالهم؛ حيث كومت بيادرهم بإبداع قادة القوادم، ذُريت سنابلهم، ونُثِرت على جنبات حجر الرحى للطيور طعمة.

خبزهم من صُنع قمح كوايرهم، ولبنهم من أضرع حلالهم وخضارهم مما أنتجته كرومهم، رفدوا ملابن مدينة إربد وقراها وتجارها بأعداد من الذبائح البلدية، وكميات كبيرة من الحليب والسمن البلدي والزبدة والجبنة والزعّمطوط واللسينة والخردلة ربيعا، وبالقمح والتين والصبر في الصيف، وبالرصيع وزيت الزيتون خريفا.

مونتهم في نملية تُخفي بأبوابها قطرميزاتِ الزيت والزيتون واللبنة المدحبرة، والجبنة والعسل والسمن البلدي، والقليل من الأسبرين وعلبة حليب النيدو مملوءة بالعدس الحب أو المجروش، وعلى سقف النملية عبوة توفي فُرِغت من الحلوى؛ لتحُلّ مكانها الإبر ومواسير الخياطة ومقص الأظافر، وربما بطارية ساعة قديمة، ومفتاح نسوا لأي باب.

بمحاذاة الجدار الملتصقة بالنملية براميل صغيرة من البرغل والطحين، وأكياس في الجدار صُنِعَت من القماش، فيها ملوخية مفروكة عُلِقَ بجانبها سلاسل من البامية، والجعدة واللوف والدنيدلة المجففة؛ لشباط قريب؛ حيث فيه برد الشتاء يتطلب إعداد وجبات ساخنة من شوربات العدس والفريكة، أسوة بالتشعاتشيل والخبيزة المفرومة، والمفتول ومجدرة البرغل.

لحفهم وفراشهم في مطاوٍ من صُنع صوف أغنامهم، وقماش جاءوا به من بعيد، وشدتها الأمهات بخيوط الفتلة البيضاء لأبنائهن وبناتهن ومنها ما جاء مع أثاث العرائس عند الزواج، كمداد من أهلها مع شيء من الشمعدان والبخور، وطقم كاسات ماء بصلاحية مزخرفة.

وسـائدهم سـريعة الغفيـان؛ حيـث لا هُمـوم تُعتـل، ولا مسـؤولية أبعـد مـن حـدود القريـة، وكرومهـا القريبـة مـن بـير الذّهـب، وحقـل العمـود وأم خروبة، و"أبو فرج" والديور.

علـى ثُغـاء صـخلة رضـيعة يبـدأ يـومهم بحلـب النعـاج والمـاعز وتجهيزهـا للانطـلاق للمرعـى المُخضـرّ عـلى طفـاف طبـق أم قـيس؛ حيـث يـروى العشـب حـكايات الدحنـون والسوسـنة، كـما يـروي ظمـأ الخـراف والدواب بمـا ابتـل بـه لـيلا، مـن مطـر أنبـت فطرهـا وفومهـا وبصـلها، وبعصـا رقيقـة يمشـون عـلى مـن تخـالف مسـارها دون الشـلية الـتي تتبـع تـلك الشُـبابة في قصـارة مـوسى، كـما تتبـع مرياعهـا الذي يسـوقه حـمار محمـل بقـوت اليـوم وقليـل مما جمعـوه مـن الحطـب المكسـور هُنـا وهُنـاك؛ لسـهرة دافئـة حُمِسَـت لها قهوة وشيء من خبز الطابون وحبات البلوط.

الطـرق والشـوارع النظاميـة قليلـة، والقريـة أقـل ازدحامـا، تنـام باكـرا بعيدة عن صخب المدن، وإشاراتها الضوئية وعجاج السيارات وزواميرها.

شـبابيكهم الغربيـة وسـائل التكييـف الطبيعيـة، والنـوم عـلى سـطح المـنزل أو البرندة من أجمل طقوس صيفها.

أيـامهم تخلـو مـن شـوائب الـدهر، وتعكـس قصصـا جميلة في بنـاء مجتمـع يحمـل بـين أركانـه أرصـن القـيم والمبـادئ، نقشـوا عـلى ذكـريات قـريتهم مشـاهدا لا تنسـى مـن آثار طيبـة في الصـدق والتعـاون، وحُـبّ الأرض والطبيعة، والعمل الجاد في سبيل المستقبل، والبقاء على قيد الحياة.

قريـة تشـرق شمسـها مـن الشـرق، وتتـنفس عليـل الهـواء مـن الغـرب ففي الثمانينيّـات لانسـاء فيهـا تمـارس الرياضـة الصـباحية أو تقـود السـيارات إنمـا ترعى صغارا ومسـنة، أو مسـنا جار عليـه الكِبَـر، فـأرداه مريضـا رازمـا بين فراشه وزحام العمر.

الشـرش والشـنبر إرث تأصـل في المـرأة مـن **ميــراث جـدتها وأمهـا** تعلمـت طـرق الصـوف وتجفيـف الباميـة واللـوف والطـبخ في صـغرها سـعادة عائلتهـا أولى طموحاتهـا، تحلـب الأبقـار وتطعـم الأغنـام، تغسـل الفـراش والحصـائر، وتنتظـر زوجهـا العائـد مـن عمـله عـلى صـينية خبيـزة وصحن سلطة، وقليل من الفجل والبصل الأخضر في الربيع.

تـتعلم الخياطـة والغـزل، وتشـارك في دورات محـو الأميـة وتحفـظ مـا تيسـر مـن "كتـاب الله"، تنسـج في كُلّ صـباح قصـة جديـدة بـين أروقـة بيتهـا، تارة تصنع ثـوبا يغطـى الإسـكملة " الطربيـزة "، وتارة تُقلّـب الثيـاب القديمـة، وتفـرز الصـالح منهـا وتمنحـه لابـن أحـد الجـيران، ممـن يناسـبه المقاس، ويُنفّش القديم البالي من ملابس الصوف؛ لوسادة جديدة.

حياة شعبية لطيفة لا غسالات هايدو فيها، ولا سامسونج بنشافة في بيوتهم غرفة تسمى بالحاصل، تتخذ فيها مهباش كبيرة صُنِعَت من ساق شجرة عريقة موقعا مهما بين أدواتهم، تُدّق بها حبات البن والهيل قبل تحميسها، ويلمع هناك نحاس بابور تعمل بالكاز والنكاشة، تحمل على رأسها طنجرة بَحتة، أو سخانة أو قدر يغلى به الماء؛ لغسل الشورة والثوب الأبيض بقطعة من النيلة الزرقاء؛ لينصع بياضها على الرّجل في صلاة الجمعة أو مناسبة لقريب.

ذات البابور وسيلة طبخهم بعد الحطب وقبل أسطوانات الغاز، ينتج على لهبها الشوربات واللحمة والمفتول، وعلى صاج مقعرة فوق جمر الحطب، ينضب رغيف كبير من خبز الشراك، الذي يُشرّب باللبن بقاع المنسف أو الهفيت، ومنه حلوى اللزاقيات المغطس بقطر السكر والسمن البلدي.

استخدموا زيت الزيتون؛ لعلاج المسعول والمسوك ومن تاهت لوزاته بين الحنجرة وعظام الرقبة، ولعلاج القشرة بفروة الرأس وتسبيل الشعر، وعشبة رجل الحمامة والميرمية وجعيدة الصبيان، حالها حال الصيدلية الثابتة في كل بيت، فهي أدوية طبيعية تُهدَر في سبيل الشفاء من آلام حطت بهم وبأطفالهم.

اعتلى أولادهم رُمحا من القصيب، كأنها خيل تطارد بين البيوت تاركة مخطوطات عشوائية برمال الحارة... خيولاً لا تحتاج إلى ترويض ولا لشعير ولا لحذوة، إنما يستذكرون بها خيول كبارهم المربوطة في خان دافئة في الشتاء، أمام قطوة فيها التبن والشعير، وجابية فيها ماء من جيعة قريبة.

لعبوا السبع حجار والدحريجة وكومستير والدواحل، وتزلقوا بلقن غسيل قديم على سحسيلة صخرية، تشكلت بفعل الطبيعة وتملّست، وأتقنت البنات لعبة الحيزة والحبل والزقطة، وبنت مدرسة تدرس فيها إحدى الفتيات، أولاد الحارة الأصغر منها سنا وعلما ذات المواد التي تلقتها بمدرستها في الصباح، بأسلوب تحاول فيه تقليد معلمتها.

في زمن لا كهرباء فيه ولا جابي فواتير، يقبل الليل ويدبر النهار وتتلاشى الشمس بآخر خيوطها؛ ليبدأ الليل بظلام فيه من فانوس الشنبر والبنورة، سراجا منيرا في السهر والدراسة أو لقضاء حاجة،فهي إنارتهم الوحيدة في البيت، وفي حراسة بساتينهم.

وللحصّادين حكاية صبح مع سراج الحصّادين... يُضيء طريقهم فجرا نحو غمارهم وسنابلهم ومطرة الماء التي لُفّت بقطعة خيش مبلولة كوسيلة تبريد طبيعية، وهو هاجس يشاركهم الحصاد بسكون عميق، تلتقي فيه الآمال مع الأماني؛ لتبقى رمزًا للعمل الجاد، ومصدر إلهام في العطاء والإيمان.

ما بين جبال جدارا .. وحبال أرجوحات تعلقت بشجر البلوط على أطراف حقل العمود .. تقبع قريتي التي فيها خلقت قصتي كما خلقت أنا .. بُنيت مدرستي وصقلت شخصيتي

من بلد الشومر والزعتر والزعمّطوط .. ينطلق صوتي وتبوح أقلامي

أن على هذه الأرض من يحبها .. صيدور

تطل صيدور على قرى ملكا وأم قيس من الشمال، ووادي العرب والأغوار الشمالية من الغرب، ودوقرة ووادي غويطه والعسالة من الشرق، أما من الجنوب تطل على أودية قرية كفر أسد، وجزء من طريق وادي العرب.

عرفت القرية وضواحيها بالزراعة؛ لكثرة الحقول فيها، والأراضي الخصبة التي غيرتها السنين بعد توقف الينابيع، وشح مياه الأمطار والجفاف الذي أطاح بعمل الطواحين القديمة، لا سيما عند إنشاء سد وادي العرب الذي بدأ عام **١٩٨٦**، بحصر مياه الأمطار القادمة من مدينة إربد وقراها عبر أودية أبدع الخالق برسمها، كأنها تحاكي بطونا حبلى بحب الأرض والإنسان، وبحسب روايات قديمة، سُكِنَت صيدور لأول مرة بعد حقبة الرومان، تقريبا عام **١٨٧٠**

تروي المعالم القديمة لقرية صيدور وجدرها المتلاصقة بجدر قرية أم قيس من الشمال، عبر طيات صفحات التاريخ حكايات وقصص، تشبه ما ترويه معالم كثيرة في عدد من قرى إربد الشمالية، التي كانت جزءا من مدن "حلف الديكابوليس" الذي أنشأه الإمبراطور الإيطالي "بومبيوس جاليونيوس" عام أربعة وستين قبل الميلاد.

وكان منها خمس مدن في إربد التي كانت تسمى" أربيلا" آنذاك، وهي جدارا أي أم قيس، وأبيلا أي حرثا أو قويلبة، وكابيتولياس أي بيت رأس، وهايبوس أي الحصن، وديون أو دايوم وهي أيدون.

تُثبت بعضا من خرائط الدولة الرومانية في الأردن، عام خمسة وستين قبل الميلاد، أن صيدور برفقة العديد من القرى المحيطة بها كانت ضاحية من ضواحي مدينة جدارا، وكانت لا تحمل أي اسم منفرد حينها، لكنّ توقعات كثيرة تشير إلى أنها كانت تسمى سايد دور في عهد الرومان أي الباب الجانبي لجدارا (side door).

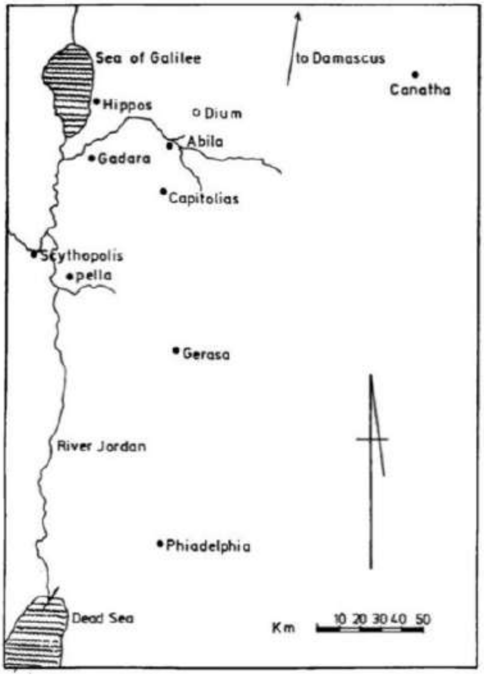

خريطة توضح مدن حلف الديكابوليس العشرة
(من كتاب جرش والديكابوليس للمؤرخ الأمريكي آيان براوننغ)

روايات أخرى تقول: إن صيدور كانت تسمى ساوثدور، أي البوابة الجنوبية؛ لذات المدينة (جدارا)، المطل الشمالي للقرية التي تبدو ملامح بعضا من الكهوف القديمة فيها، أنها كانت مساكن للفقراء والبسطاء، وقد يكونوا من جُند الجيش الروماني في ذلك العهد، ومن المحتمل أن يكون من بينهم، القديس جرجس الشهير الذي كان أحد جنود الرومان في عهد بومبيوس، وهناك جزء من الحي الغربي في صيدور يسمى "جرجس ".

تزينت جنبات الأودية في قاع صيدور بالكثير من الشجيرات البرية والقصب الذي استخدم على مدى عشرات السنين، كسقف لبيوت وعلّيات السكان في القرية، كحال الكثير من مناطق الأردن في الزمن البعيد، كما كان القصب هو الأساس في بناء المعرشات باب البيوت وفي المزارع، وهو المادة الخام؛ لصنع شُبابات ونايات؛ لهواة العزف من الشباب ورعاة الأغنام، الذين كان يرجع صدى أنغامهم للقرية بأجزاء كبيرة من اليوم.

القندول والحزور والدوم والهرميس، وطريق العسالة والسوميات، وريح الزعتر والشومر والجربوح، جزء كبير من إرث القرية المطلة على قلعة " أم قيس" الأثرية، فهي حاضنة برفقة جبال صيدور المتواضعة بارتفاعها؛ لكنز وفير من خصوبة الأرض وجمالها الذي يمتد من " **القلعة الموطزه حتى عبود والحلفاويه وطاقة شفيقه** " بمحاذاة طبق أم قيس.

يتعاضد الجميع كعائلة واحدة، نسجت فيما بينهم أروع قصص الحب والإخاء والمصاهرة، فرحهم واحد، ترحهم واحد، يدهم بالخير واحدة، وبيوتهم مفتوحة؛ لضيوفهم القادمين من الجهة الجنوبية، المدخل الوحيد للبلدة.

هنـــاك... عـلى بيـادر خاليـة في الجـزء الشـمالي لقـريتي؛ حيـث كانت التينة الضخمة، على شفا أودية تلملم حقول الزيتون وأشجار البطم واللّبنى واللوز... قرب ظلال شجر البلوط المعمر **تقبع حارتي** التي تروي فيها جدران الحجر والطين حكايات الأولين.

تحت سحب ألقت بظلالها السمراء على بساتين القمح الخضراء هُنا وهُناك؛ حين تعبق رائحة الجويزة والشومر، **نمّيت واشتدت سيقاني** كما كُلّ أطفال الحارة، ومعا على شواطئ الحنان ودعنا أمهاتنا؛ للمرة الأولى ذات صباح دافئ، متجهين إلى تلك المدرسة العتيقة بقصب سقوفها، المتينة بصلابة تأسيسها، الرصينة برفعة علومها؛ لنبدأ سوية رحلة في التعليم، ستمتد من الصف الأول الابتدائي" **عام ١٩٨٨ حتى الصف التاسع عام ١٩٩٧** "

على يد الأستاذ علي العشب مهيدات، ومعلمين أنجبتهم إربد وصيدور وكفرأسد والخراج، تعلمنا الحرف والخلق، ولعبة رن رن يا جرس.. حاورنا عمي منصور، يضحك في منجرة احتلت من كتاب القراءة موقعا تأسست به حياة باسم ورباب.

نستيقظ صباحا على صوت أم تحمل بشكيرا صغيرا تراقب غليان إبريق الشاي على غاز، صنع من ثلاث عيون (صغرى وكبرى ووسطى) يحتل من تلك السقالة الإسمنتية، مكانا محصنا بعيدا عن متناول الأطفال، وفي مسمار دقّ في الجدار القريب من مدة يدها، عُلّق راديو ياباني الصنع بأنتيل قصير، يلتقط إذاعة عَمّان في الصباح، وصوت الجنوب من لبنان في الظهيرة، وإذاعة صوت الشرق في المساء.

مدارسنا يتمة حينـــــــــها...

لا سور لها، ولا موقف للحافلات الصفراء، ولا ازدحامات بأبوابها نتمشى إليها نمسك بأيدي بعضنا البعض، محمّلين بحقيبة كتب خالية من التعقيد، ودفتر العربي الذي كان يسمى سفينة، ودفتر رسم وعبوة ألوان، مما جاء به أبو عكاش؛ لدكانه مع قليل من المحايات المعطرة وأقلام الرصاص المبرية.

اعتبـــارا من الغـــــــــد ...

كلمة افتتاحية يبدأ بها الأستاذ ضمان خطابه؛ لأبنائه الطلبة، مُمليا عليهم تعليماته الجديدة بخصوص الالتزام بالأنظمة والقوانين.

رافقنا طابور المقصف وجرس الفرصة، وأصوات المعلمين وأشكال توقيعاتهم على ورق الاختبارات في الكثير من الذكريات، على أيديهم تعلمنا رد السلام على الكبير والصغير، وأن نُعين المرأة والكهل.

تأسسنا على"**بني الإسلام على خمس**"، والامتناع عن تناول الطعام والشراب من مشرقها حتى مغربها في رمضان، تعلمنا أن النظافة من الإيمان، وأن نكون طائعين بالخير لمن يكبرنا سنا ومتعاونين في كثير من الأمور الجماعية، كمساعدة الناس في قطاف الزيتون، أو تنظيف المساجد والمقابر، فلنا بها أجر عظيم بإذن الله.

تنتهي حصة الفن والرياضة والعلوم والقراءة، وتنتهي أيضا عطلة نهاية الأسبوع؛ لنعاود يوما دراسيا جديدا بكل شوق للمدرسة والأستاذ والقرطاس، كتبنا مواضيع الإنشاء والتعبير عن أجمل وأغرب المواقف في قريتنا، حتى تكون فرصة للمعلمين؛ لمعرفة كيفية قضاء أوقاتنا.

كم نحن محظوظون بهؤلاء المعلمين، وتلك المدارس التي كانت تتخذ من التربية والتعليم شعارا حقيقيا؛ لتنمية جيل نتج منه جندي وطبيب مهندس ومعلم وحقوقي، عايشنا فصول السنة بكُلّ ما تحمله من طقوس في تلك المدارس والقرية، وكُلّ مناطق بير الذّهب.

"اشتي اشتي يادنيا على بيت بنت أختي"

أنغام تتـزامن مع أواخـر الخريـف، وعلى موعـد مع قطـرات الرحمـة مـن رب السـماء، أعـود مـن مدرسـتي وألقي مـا تحمـله يـداي مـن كتـب وواجبـات منطلقـا؛ لألتحـق بقـافلة البـراءة والرجـاء، بأناشـيد تتعـالى بـين أحيـاء وزقـاق القريـة، تـأتي مـن قبله؛حيـث المدرسـة، وتمـر مـن باب الحـاج سلامه والحاج علي، ومن أمام المسجد العتيق.

مـررنا مـن درجـات الحاجـة وضحـة وبرنـدة أم عمـر، وبكـب الحـاج حمـد المركون على جنبات بيتـه القـديم، الذي كان قـد أُجِـر حينهـا لـوزارة التربيـة والتعليم، كمدرسة للإناث في الصباح، ولمحو الأمية في المساء.

نتابع مسـيرنا نـزولا باتجـاه بقـالة أم مـوسى، الـتي كانـت تلملـم مـا وضـعته مـن أشـياء على البـاب خوفـا مـن البلـل، فهـا هي السـحب تسـتعد لقـذف مـا فيهـا مـن مـاء تعطشـت للقائـه الأرض، ففيـه اسـتقاء للبشـر والشـجر والحيـوان، ولمـا بـذره المزارعـون في الجـورة الحمـراء، وأطـراف المردمـة وتـل صـقور، وكُلّمـا شـعرنا ببـدء دلـف السـماء، كُلّمـا اعتلـت الأصـوات فرحـا باستجابة الله لنا.

كانت ببـراءة طفـولة معفـاة مـن الحقـد والأنانيـة والفسـاد، تنظـر للحيـاة مـن منظـور يخلـو مـن السُـمّية والكـذب والنفـاق، تثـق بـكُلّ مـا حولهـا وتظـن أن الجميـع بـنفس العفويـة، وبـنفس الفكـر الذي كان أبعـد حـد فيـه اللعـب والنوم، وانتظار عودة الأب من عمله، وصباح العيد.

في قلب الأرياف الهادئة وبين غيمات ذكريات الخريف الجميلة عام **١٩٩٠**، غرسنا برفقة أبي شجيرات الزيتون، التي أينعت بعد عهد قصير في منطقة الديور.

لم يكن ذلك اليوم؛ لحفر غُرزة لتلك الشجيرة فقط، بل كان بداية لغرس حُبّ الأرض فينا بنبض قلب رجل مليء بالعزيمة، لا يتوانى عن تقديم دروسٍ في المثابرة والإصرار؛ ليبقى مصدرا للإلهام والقوة، فبقوامه الأنيق ونظرته الحنونة، تأتي تفاصيل القصص الوطنية للحياة، حيث كانت خدمته في القوات المسلحة الأردنية، مجرد نقطة على خريطة العطاء، وعندما انتهت خدمته العسكرية، بدأ بفصل جديد من الانخراط الفعال في المجتمع.

لم يكتفِ أبي بتقديم النصيحة لي ولإخوتي فقط، بل لكُلّ من احتاج إلى نصيحة صادقة وحكيمة، نقل قيم العمل الجاد وروح التحدي بجرأة وعزيمة، إلى تحقيق أهداف تتطلب تفانيا وصبرا، يستعرض لنا دوما أهمية الصداقة والوفاء، وقيم الشجاعة والأمانة؛ ليبقى قدوة يحتذى بها ومصدرا دائما للفخر والامتنان... على ضفاف الأيام مهما كتبت لأبي ومهما عملت لأجله، لن أوفيه حقه من الحب والاحترام، لأخبره أنه ليس مجرد اسمٍ في سجلات الأيام، بل بصمة لا تُمحى، وأسطورة تستمر في مداواة الآلام.

في السابعة والنصف من إحدى صباحات صيدور الخريفية نستقبل قرب المنطرة، وبمحاذاة مدرسة البنين، باصها قادما من المدينة إربد مسرعا، فهي ساعة الذروة بالنسبة له، وموعد التنافس مع باصات كفر أسد؛ حيث يرفض أي طرف منهما أخذ ركاب الآخر تحت أي ظرف من الظروف، وغالبا ما تصل الأمور بينهم إلى التعارك اللطيف.

نزل من الباص أستاذ من الحصن، وآخرون من قميم وبيت يافا والبارحة، معلمون في مدرسة صيدور، بيد أغلبهم جريدة الرأي أو الدستور؛ حيث كانت المصدر الأقوى؛ للحصول على الأخبار المحلية والدولية، والكلمات المتقاطعة والوفيات، كما نزل من ذات الباص حارس ليلي من أبناء القرية يعمل في مركز المدينة، وأناس يحملون خبزا وقليلا من أغراض جاءوا بها من كفرأسد.

في زحام الثمانينيّات...

لم يكن في صيدور سوى دكانّين صغيرين أو ثلاثة، منها دكان أبي هنطش ودكان أبي عكاش ودكان أم موسى، وأذكر سيدة تأتي من قرية أخرى، كنا نبتاع منها ما تحويه سلتها الخضراء، من ويفر ودروبس وحلقوم ودبل ويل وبالونات ملونة... مشتريات ندفع ثمنها مما تبقى من حساب فاتورة الكهرباء، من برايز وقروش حمراء، بعد قدوم الجابي مرة في الشهر؛ لجمع أموال شركة كهرباء إربد، وكان منهم في التسعينيّات السيد علي جميعان؛ والذي قيل: إنه توفّي في حادثة دهس، أثناء جولته الفواتيرية في إحدى القرى، كما كانت النساء تبتاع ملابس أطفالها من دواج يحمل بغجة على كتفه، يتجول بها بين بيوت القرية مُناديا على ما يحمل، بكلمة "بضايع... بضايع".

حياة دون هواتف، وربما الذهاب إلى بريد كفرأسد هو الخيار الوحيد لإجراء مكالمة هاتفية ضرورية، قبل وضع مؤسسة المواصلات السلكية واللاسلكية، هاتفا في منزل الحاج عبد الرحيم المصطفى جنوب القرية حيث كان يتلقى اتصالات من كُلّ مناطق الأردن، ومن مغتربي صيدور في الخارج، وهو ما يتطلب إرسال أحد من أبنائه؛ ليُعْلم الناس بأن هناك موعدا لهم بمكالمة من ابنهم أو قريبهم، في الساعة المحددة بين المتصل والمتلقي.

مدرسة البنات والقلعة الموطزة...

في منتصف الثمانينيّات ، كانت مدرسة البنات القديمة في حارتي أقصى شمال القرية، تتعرى من أي أسوار ومن أي حُراس، كان جميع أهل حارتي سورا منيعا لتلك المدرسة، وحراسا لها دون تعيين رسمي، بل فزعة وانتماء، لكُلّ مقتنيات الدولة القريبة أو البعيدة.

اتخذنا من ساحتها الترابية ملعبا في المساء والعطلات، ففي ظلها نسجت طفولتنا أروع الذكريات، كان لصوتنا صدى يحفزنا على الغناء، والمناداة بصوت عالٍ حينما نقترب من أبوابها المقفلة، نخاف على زجاج شبابيكها من اللعب بالكرة أو غيرها، كما نخاف على زجاج بيوتنا.

كان لأهل قريتي من حارثي الأرض وباذري حبوبهم، وغارسي أشجارهم والحصادين وقاطفي الزيتون، ممن يملك تركتورا أو بكبا دربا ترابية تمتد من أمام المدرسة إلى العرقوب، ومنه إلى "أبو الشومر" ومابعدها، كان في وداعهم واستقبالهم، وشاهدا على سرواتهم ومواعيد حلاتهم... صخرة تأهبت على سطح الأرض، كيد عجوز تؤشر للغرب كان اسمها "القلعة الموطزة"، وهي صخرة تشبه بخفاياها اسرار بير الذّهب، والكثير من الطلاسم المنثورة، بين حنايا المناطق الوعرة في القرية.

اعتلينا القلعة الموطزة مرات ومرات، وضربناها بسياط كأنها خيل تطارد بنا في الطبيعة القريبة من خلة البيضا، التي تغل بعروق السوكران والقُريص، كتبنا على خصرها بماء العوصلان أسماءنا عدة مرات، وطبطبنا على بطنها دون أن تبوح لنا بشكواها أو بوحدتها، أو بأي شيء قد يفك سرا من أسرارها التي تاهت بها، ما بين الطبيعة وما بين صنع الإنسان.

كثيرون اعتقدوا أن "القلعة الموطزة" هي إشارة تدل على دفين ما بقربها، وبقيت هذه الصخرة إلى أن كسرها أحدهم خفية ذات ليلة؛ لمآرب ربما تعود للبحث عن الذّهب... أرداها طريحة في الأرض بعد عمر لا يعلمه أحد؛ لتخسر قريتي بذلك معلما غامضا من معالمها القديمة الشاهدة على أزمنة، ضاع منا الكثير من قصصها.

دفن الامتداد العمراني في بلدتي باب ومعالم مغارة علوان، تلك المغارة المطلة ببابها على خلة غويطة، معلما كان اسمه يصدح بالكثير من المعطيات على أنها سكن لشخص يسمى علوان، عاش فيها منذ زمن بعيد، اختفى علوان قبل أن نلحق به، وقضينا على بيته حينما أصبح فوقة سور لمدرسة البنات، وطريق تربط العرقوب بشوارع قريتي الشمالية.

"**التكسي الشهيرة**" ما بين السبعينيّات والتسعينيّات في صيدور سيارة مرسيدس **١٩٠** موديل **١٩٦٧**، للحاج أبي ارشيد، والتي اقتناها عام **١٩٧٣**، كانت سيارة الجاهة والعروس في الفرح، وسيارة الإسعاف للوَلادات والمرضى والملدوغين في الحالات الطارئة، وشارك عدد من أهل صيدور، في العديد من مواسم الحج والعمرة، برا بتلك السيارة.

هي سيارة الاستقبال والوداع، تنقل الكاز والخبز والخضار من كفرأسد وإربد في الشتاء، وشوالات البصل والحصّادين في الصيف وقاصدي سوق إربد في باقي الأيام، إضافة إلى مشجعي نادي الحسين إربد والرّمثا، في مباريات تُقام على أرضية الملعب البلدي في إربد.

وهي المهمة التي كانت على عاتق أبي ظاهر، حين كنت أقصدها وإياهم برفقة أبي، خصوصا أن تلك المباريات كانت تحتل من عصر الجمعة موعدا يكتظ به الملعب بالمشجعين، الذين هبوا من كُلّ القرى، فالمباراة حاسمة بالنسبة للكثيرين من الشباب في إربد وقراها؛ حيث إنها من أقوى الأندية الكروية، في شمال الأردن حينها.

من الصعب أن تكون صيدوري، ما بين سنة **١٩٧٣** وحتى منتصف التسعينيّات، ولم تستقل سيارة أبي ارشيد، فهي الناقل الرسمي لكُلّ فعاليات أهل القرية دون كلل أو تذمر من صاحبها الذي قال ذات مرة: حمّلت في أحد الأيام أربعة عشر شخصا بسيارتي متجها إلى إربد، وفي الطريق أوقفتني دورية السير

وعند النظر إلى عدد الركاب قال الشرطي مستغربا: عليك أن تخبرني كيف قمت بترتيب هذا العدد من الركاب بهذه الطريقة؟ قلت له: سأنزلهم جميعا إن أردت، وأعيد ترتيبهم مرة أخرى أمامك، فضحك وسمح لي بالانصراف، دون أي مخالفات.

استيقظنا صباح يوم على صوت الحاج أبي ارشيد يصرخ قائلا: اتركيها اتركيها، هرعنا؛ لنراقب ما يحدث، وإذا بالسيارة تتهور دون وجود أي راكب بها أو سائق؛ لتداهم توتة جدي عبد الرحيم بآخر نزول الشارع حيث كان الحاج أبو ارشيد يحاول تعشيق السيارة إلا أنه فقد السيطرة عليها فتركها.

لكن الحاجة بدرية وعلى بركة منها، حاولت أن تمسك السيارة بيديها من الخلف، حتى لا تتسبب بأذية لأحد... توقفت السيارة دون وقوع أي خسائر بها أو بالبشر، وانتهى الأمر بسحبها جرا للخلف ببكب نيسان جونيور، وتركيب بطارية جديدة؛ لتعود لمزاولة عملها كناقل رسمي في صيدور.

مشهد حادثة تدهور سيارة أبي ارشيد، يعيده لنا بكب دار أبي قاسم البشايره، عندما استيقظوا في صباح يوم ما، ولم يجدوه بمصفه جانب شجيرة التين أمام بيتهم، وعند البحث عنه، وجدوا أنه في غفوة بين شجرات الزيتون في قاع "الخلة"، التي كانت وما زالت من الصعب وصول أي سيارة إليها، بالشكل الطبيعي.

حينها هبّ أهل القرية جميعهم؛ لدفع ذلك البكب، وتسهيل الطريق أمامه إلى أن أخرجوه، وكأنه تسير بطريق نظامية بتكاتفهم وعملهم الدؤوب على الخلاص من ذلك المأزق، الذي وقع في منتصف تموز من عام **١٩٩١**

التكاتف بين الأهالي في هذه القرية، لا يحكمه موعد أو جرس إنذار، بل فزعة تخلو من المجاملات الزائفة وطرد الأعذار... هبّوا لصيانة بيوت بعضهم مع بداية كُلّ شتاء، ويساعدون فيها الأرملة ومن لا مُعين له، جمعوا التراب المغربل بمقطف يشبه التشربال، وخلطوه بتبن مجبول بماء، كصبة لسقوف فتحت بها الأيام مسامات تُسَرِب المطر بدلف بطيء على أمتعتهم.

ذات الأكتاف تهتز؛ لسمل ما جمعته آبار حاراتهم من تراب أصبح طينا رمادية بأعماقها، يُنشَل بالرغم من وزنه الثقيل، ويلقى خارج البئر لتصبح جاهزة لاستقبال مياه جديدة، بموسم شتاء غُسلت له الأسقف والمعاطف والفروات، ونُظّفت له المزاريب والكوانين، وبواري صوبات الجفت والحطب.

"**سنة الثلجة**" ربما هي الذكرى الوحيدة التي نشبهها بأجواء لبنان في فصل الشتاء، حين كنا نرى من قريتنا في فصل الربيع، جبلا شاهقا بارتفاعه، يلمع كلوح زجاج شفاف متجمد بكل أركانه.

إنه جبل الشيخ عندما تعكس الشمس خيوطها عليه صباحا؛ ليَظهر واضحا أمام جميع سكان مناطق إربد الشمالية.

في صباح يوم بارد من أيام شهر شباط للعام ١٩٩٢ ... استيقظ أهل قريتي على بياض ثلج كسا بنصاعته كُلّ معالم وشوارع الحارات، الكاز والغاز والخبز، يوزعه عيسى أحمد الموسى، وزملاءه من الجنود عبر دبابات القوات المسلحة الأردنية المجنزرة، بعدما توقفت سيارة أبي ارشيد، وجميع سيارات القرية والبلدية عن العمل، وأغلقت جميع شوارع القرية؛ كغيرها من كُلّ القرى التي طالتها الثلوج.

تركت تلك السنة، دفترا مليئا بالذكريات عند الكثيرين، جُلّها فلانة أنجبت ابنها فلان سنة الثلجة، وفلان تخرج من الجامعة أو تزوج سنة الثلجة، فلان توفي سنة الثلجة.

نتشوق في بلدتنا لكُلّ مناسبة صغيرة كانت أم كبيرة، فهي فرصة للخروج عن روتين يسود الحياة في قرية ترقد بهدوء، وتستيقظ بعفوية؛ لتبدأ الحياة فيها بذات الوقع اليومي، الذي لا يتغير إلا بحدث جديد يحدث مرة كل زمن، كولادة طفل جديد، أو زواج أحد الشباب، أو زيارة ضيوف من القرى والمحافظات المجاورة.

فرحة عارمة تشبه فرحة فاردة العرس والذهاب برحلة مدرسية، قد تصب في كُلّ أجزاء الطفولة؛ حينما يخبروننا أننا بصدد زيارة أحد الأقارب، في مكان بعيد عن القرية، نستعد لتلك الزيارة ونتأمل كُلّ ما فيها قبل بدأها، نستذكر فيها مرات سابقة من الزيارات، وما الجديد الآن، وهل بقيت الملامح كما كانت أم تغيرت؟

جميلة هي الشونة الشمالية ومناطق الأغوار، المحاذية لسد وادي العرب من جهة الغرب، حين كان الذهاب إليها يتوجب الوقوف على مثلث كفرأسد، وانتظار الباص القادم من إربد، والمتجه إلى الأغوار.

الرحلة غالبا ما تكون مزدحمة بالركاب، على متن حافلات دعيس التي تسيطر على الخط الرابط بين محافظة إربد والأغوار الشمالية؛ حيث لا مقاعد خالية حين قدومها من إربد، وعليك قضاء المسافة وقوفا إلى حين نزول أول راكب، والذي ربما سينزل على مثلث الشونة، على بعد خمس وعشرين دقيقة من المسير في منعطفات وادي العمود، ومنطقة خربة مرشد، وطريق المخفر القديم.

تلك التجربة خضتها مع والدي في أواخر الثمانينيّات، عندما أراد جدي عبد الرحيم، حجز كمية من الشنينة؛ لعرس عمي قسيم من ملبنة العم جميل البشايره المجاورة؛ لضريح الصحابي "معاذ بن جبل" في الشونة الشمالية، تلك الملبنة التي بدأت عملها في عام **١٩٨١**، وتوقفت عام **٢٠٠٠**

باصات دعيس من العبارات المشهورة على الحافلات الكبيرة في أواخر الثمانينيّات، وشركة باصات صيدور الأهلية، وإربد - كفرأسد على الباصات المتوسطة، لا سيما أن الرحلات المدرسية كانت عبرها حين كانت الحمة والعدسية وطبقة فحل، هي باريس التي يقضي بها ابن صيدور يومه، إذا أراد أن يتغرب قليلا عن بيته وحارته؛ فهي" مناطق الغلابا السياحية ".

لحقت بها مناطق كثيرة داخل صيدور وأطرافها، بعد اكتشافها من قبل الشباب، كمناطق جميلة للتنزه مثل: خلة خلف ومنطقة زحر الغربية على طريق الغور القديمة، ومنطقة "أبو الشومر والبويرة" التي زرناها ذات مرة مع صديق أبي" أبي علي الصُبح" الذي قدم من قرية بيت يافا بسيارته الفوكس القديمة؛ لقضاء يوم كامل في صيدور.

مدينة الملاهي في شارع جامعة اليرموك، حلم ربما نعيشه مرة في السنة أو السنتين، من خلال رحلة مدرسية نعود إليها بعد جولة بين أعمدة جراسا الرومان (جرش)، وأقواس شبابيك قلعة صلاح الدين في عجلون، والتي يسبقها تناول ما أعدته أمهاتنا في صباح تلك الرحلة، من نصف دجاجة مشوية، وقليل من البطاطا والبيض المسلوق، وقطعا من جبنة المثلثات والكيك، بين أشجار متنزه دبين، التي حُفِر على جذوع بعضها، قلوب الحُبّ وأحرف العُشاق، وتاريخ رحلتهم.

ينقضي العام الدراسي كاملا، ونقف أمام عطلة صيفية تمتد لأكثر من شهرين، يرافقها الكثير من المغامرات التي يعتبر جزءا كبيرا منها بشقاوة الأطفال، والكثير من الأعمال في قرية ريفية تسورها أشجار الكينا، وعدد قليل من أشجار الصنوبر، والكثير من شجر البلوط التي طالما اتخذنا ظلها للاجتماعات، وبناء البقالات مما تخلفه البيوت من علب الحلوى والعصائر والمعلبات الفارغة، كما استخدمنا أغصانها لتعليق أرجوحات تنتهي بكيس الطحين الفارغة؛ لتكون بمثابة تليفريك قصير نداعب خلاله نسمات الهواء الغربي.

وغالبا مانكون في ظل أشجارنا بحضرة العديد من الفعاليات الريفية الصيفية، كحف المكانس قبل شدّها على يد الحاج علي نهار، والحاج عيسى العمرات، أو تقشير البصل بعد قلعه من البويرة، أو دقّ الخبز اليابس المجموع للدواب، أو جز أحد مربي المواشي لصوف أغنامه وتسريبها للقضاء على البراغيث، كما تحيط القرية كروما من العنب والتين والزيتون، والكثير من الكهوف التي تُعد مرتعا للأفاعي الخطيرة والحيوانات النادرة، وتدور قصص كثيرة حول وجود دفائن من الذّهب في تلك الكهوف أو حولها.

تحمل العطلة الصيفية الكثير من المواقف والتحركات التي غالبا ما تكون دون وعي أو دراية بمخاطرها، ركبنا على تندات بكبات الحاج حمد والحاج صالح دون خوف، تعدينا على أعشاش العصافير بمد أيدينا دون تحسب لوجود أفعى بدلا من الفراخ التي ننشد... عُدنا من العراقيب والديور إلى صيدور، على جناح تراكتور أبو الخير الذي يجر دراسة أو تنك ماء، وترلة أبا أكرم، التي تحمل تبنا؛ لأحد المزارعين في القرية، دون أن ندرك الخطر.

كنا على ثقة كبيرة بكُلّ ما يُحيط بنا، صنعنا من بيليا السيارات عربات تزلق لطلعة أم شريف ونزلة دار أبي ارشيد، وجمعنا صناديق الفلين المخصصة للخضار والفاكهة، واستبدلناها بالأيمة من باصات الفوكس فاجن، المتجولة بصوت موسيقا كانوا قد اجتزؤوها من إحدى مقطوعات بيتهوفين.

نشتري الخمس قطع من الكريزه بشلن

تتبعنا صوت من ينادي اسحب أكبر بالون بقرشين ونص، تقاسمنا بالشلن أيضا كيسين من شيبس فطوطة أو حبل من المطعم البرتقالي والأصفر والأحمر.

انبعج صغارنا، والتهبت لوزاتنا، وطال سفير القمح وشوك الصبر عيون بعضنا، اتسعت الوحمة على وجه أحدنا، ومنعته مسامير اللّحم وبعض الثواليل من السير، فتداوينا على يد أم شريف، وأصيب طفل بالعين، قرأت عليه جدته أم علي آيات من "القرآن الكريم ".

كُسِرت يد طالب في حصة الرياضة، ورِجل آخر قفز عن "سنسلة" في روض الحمض، جبّرها عبد الله السمرين، تألم كثيرون في ظهورهم وبطونهم؛ فكان سيخ الحاجة عقيله (أم علي) جاهزا للكي في مكان الألم، كُلّ ذلك دون أن نتحمل عناء السفر إلى مستشفيات المدينة المزدحمة... هُنا أطباء صيدور وكفر أسد حاضرون وبالمجان، بل دون أي مواعيد وانتظار، ولا وثائق تأمين أو إعفاءات، وفوقها ضيافة من المُطّبِب.

استخدم أطباء الطبيعة في صيدور وقرى الأردن في ذلك الزمن البديع أعشابا نباتية نمت في طبيعة ألقت بخيراتها على كُلّ شيء، علاجات لمن أصيب بالحمى والمغص والحروق والحزازة والوحمة، وغيرها من الأمراض وتضميد الجروح، حين لم يكن هُناك إبرٌ لتسكين الآلام، ولا أسرة بيضاء ترتبط بأنابيب لأكياس المغذيات.

تلك الأدوية استخدموها معتمدين على الفطرة التي خلقت معهم؛ بأن كُلّ ألم سينجلي بإذن الله... في خضم الزمن الذي أصبح به العلم بانتشار أطلق أبناء قريتي اسم التمرجي على من درس التمريض، وأصبح يزاول المهنة كباشا له الكثير من الوزن، والتقدير بين الناس.

في الثاني عشر من أيلول لعام ١٩٩٦ توفي "أشرف الحسن" غرقا بسد وادي العرب، خيّم الحزن على قرية صيدور بأكملها ليالٍ عدة كنا وطلاب صفه وطلاب المدرسة والمعلمين أجمع، جزءا من ذلك الحزن، فوقفنا بجانب أمه مواسيين لها، بصفنات أعْين تقول لها اصبري وصابري،اربطي، ورابطي، رحم الله أشرف.

وفاة أشرف ومشاعر الحزن التي انتابت الناس ليلة تلقي الخبر لامست مشاعر حزن كانت قد دفنت سابقا، عندما تلقى أهل القرية خبر وفاة سُفيان العلي في محيط منطقة العَلم في القوبع، إثر انفجار لغم قديمة منه اجتثت يفاعة شبابه دون ذنب.

حزن امتد طويلا وتوحد في القلوب، قلبت فيه النساء أثوابهن وسكت كل صوت بهيج في بيوت أهل القرية، كأن المتوفي ابن للجميع، والعزاء للجميع.

***

أبي يحذر من الخروج في حر النهار، لكنّ لا بُدّ أن نلعب فذهبت إلى البدوية وجرجس في الحي الغربي، دون علمه وبقيت للمساء، وأثناء العودة في الطريق، كان أحد أبناء البلدة يسوق عددا من الأغنام أمامه، وبينها حمار بلا سرج.

قررت خوض التجربة باعتلاء ذلك الحمار، وإكمال المسافة للبيت من خلاله، وما هي إلا لحظات قليلة ويجمح الحمار منتحلا صفة الخيل السريعة، دون أيّ سيطرة مني عليه؛ ليسقط بي أمام مجموعة من الرجال في طريقهم؛ ليعودوا مريضا في الحي الغربي.

كان من بينهم أبي الذي لم أكن أعلم بأنه معهم، فكان لي من النصيب ما كان، ألم في الأكواع إثر ارتطامها بالأرض، وألم من رفسة الحمار لأجزاء من جسدي، وخوفي أمام أبي الذي لا أعرف كيف سأواجهه بعد كُلّ التحذيرات، وكذلك احراجي مِمَن سقطت أمامهم.

نصـيحة الآباء في مكانهـا؛ لتجنـب مخـاطر لا يـدركها صـغارهم في تـلك الفتـرة، ومـا يريـدون منهـا إلا توجيهـا صحيحـا؛ لحمـايتهم مـن أي شر قـد يلحـق بهـم، لكـن المهم أن نتـذكر أن الأخطـاء جزء طبيعـي مـن الحيـاة ومـن خلالهـا يمكننـا أن نكتسـب الخبـرة والنضـج، ويمكـن أن يكـون الخطـأ فرصـة؛ لـتعلم دروس جديـدة تُجنبنـا الخطـأ في المسـتقبل، وإن كان فيـه بعضا من التحديات الصعبة.

المغـامرات لا موعـد لهـا، وإنما موعـد حصـاد القمـح معـروف، ويتـزامن مـع هـذه العطـلة الـتي قيـل: إن وزارة التربيـة والتعليـم، خصصـتها منـذ زمـن بعيد بهذا الموعد؛ ليتمكن الطلاب من مساعدة أهاليهم بالموسم.

البويرة واللزابة وأم النمل والديور والقوبع وأبو فرج

حقـول ذهبيـة تعـانق الشـمس بـكُلّ محبـة وفزعـة مـن أهـالي القريـة، ويجـب أن نسـاعد فيـه بمـا اسـتطعنا مـن قـوة، حـتى وإن لمْ يطلـب منـا أحـدهم ذلك، لكـن تتـولد في بعـض الأحيـان وعـود بـرحلة إلى السـوق وسـط مدينـة إربـد، فـور الانتهـاء مـن تعبئـة آخـر شـوال مـن التـبن؛ لـنعلن معـه انتهاء موسم الحصاد على خير.

ففي إربد عصير لذيذ وسندويشة شهية، وسوق بالة له رائحة مميزة وشوارع مليئة ببسطات القرطاسية والفطايل والألعاب، التي تشوقنا للسوق لأجلها... كانت هذه الرحلة بعد إغلاق التبانات على ما جمعناه من التبن، وإغلاق الكواير على ما أنتجته سنابل الحقول من حبوب قمح طاهرة، ولملمة المفارش، وما تبقى من أكياس خيش فارغة، وأخيطة المصيص والمسلات، والاحتفاظ بها للموسم القادم.

المناطق الخصبة في ضواحي صيدور الزراعية لا تخلو من القمح والحصّادين، الذين يحاولون استغلال قطرات الندى على قصل السنابل، حتى لا يبوء حصادهم بالتكسير، والذي قد يتعبهم عند جمع غماره في النهاية.

رحلة الحصيدة ممتعة، خصوصا إذا كان هناك استراحة مشاكس يشبهني برفقة الحصّادين المتعبين، تحت شجرة الخروب في منطقة اللزابة، آخر طلعة "عراق الحصو"... هُناك يجتمع الكثيرون على وجبة ريفية طُهي أغلبها على نار الحطب، بجانب إبريق شاي يتجاوز عمره عشرين عاما.

في ظل خروبة اللزابة...

استراحة حصاد يلقى خلالها شماغه المشرّب بالعرق، ومنجل ورثه عن أبيه أو جده أو اشتراه من سوق إربد القديم، وهُناك حكايات تنسج وخلافات تحل، وتنتهي الكثير من التأويلات حول خرافات وألغاز عديدة عاشتها المنطقة.

من بين حصّادي الموسم طالب جامعي، وطالب في الثانوية أنهى امتحاناته، ومجاز عسكري أو شرطي، وأستاذ مدرسة ودكتور جامعي، بينهم حكيم رسمت الحياة على محياه الكثير من الخبرات في البلدة وتاريخها الزراعي والاجتماعي، ومعلومات فاتت أجيالا كثيرة عن أساطير، كان قد التقطها من أحد في صغره.

يروي حكايات شقع المزاريب في الشتاء، وحراثة البغال والدواب لأراضي القرية، وأن الضبع يخاف البقرة ويُخيف الإنسان، وكيف يحتل عازف الربابة جزءا من السهرات في عُلّيات بعض الرجال ومضافاتهم.

علــى أطــراف اللزابــة؛ حيــث كانــت الخروبــة علــى زاويــة أرضــه... حــدثنا المختــار أحمــد مُحَمَّد البشــايره ذات مــرة، أنــه كان صــيادا مــاهرا في أوديــة صــيدور وجبالهــا المتاخمــة لجبــال أم قــيس... روى لنــا حــكايات ورود أهــالي أم قــيس وملــكا وصــيدور ودوقــرة، عــلى عيــون مــاء عديــدة في وادي العــرب؛ لنقــل مــاء الشــرب، وغســل صــوف أغنــامهم وفراشــهم، ومــنهم مــن كان يــأتي للحصــول عــلى أغصــان مــن شجــر الدفــلى والقصــيب؛ لاســتخدامها في أســقف البيــوت أو تــزيين أبوابهــا لاســتقبال الحُجاج.

سمعنــا بحيــوان يســمى الحصــيني، وكان دائمــا يغتــال مــا اســتطاع مــن دجاجــات أهــل القريــة، تاركا بالشــيء القليــل مــن الــريش والأجنحــة للــواوي والقطــط، ويقــال: أن الحصــيني يجعــل مــن نفســه ميتــا حينمــا شــعر باقــتراب الإنسان منه ومحاولة أسره.

عرفنــا أن النــيص يقــذف ســهمه الملــون بالأبــيض والأســود، نحــو مــن ظنّــه عــدوا له، وأن خنــازيرَ ضخمــة لا تُبقــي ولا تــذر، كانــت تــداهم بســاتين المــزارعين، في ليــالٍ صــيفية تكســر فيهــا البطــيخ وتنعــث البيــادر، وتقــض مضاجع الحارسين.

بُنيت حياة أهل القرية على خمس قواعد هي" الدين، والكرامة والنشاط، وحبّ الأرض والكفاح"، وبُنيت بيوتهم القديمة من حجارة قطّعها عمال من صخور كبيرة بيومية كانت سبعة قروش للعامل الواحد، حين كانت تكلفة بناء بيت للعريس عشرة دنانير، وسعر الصخلة الصغيرة خمسة وعشرين قرشا.

استمتعنا بسرد كبارنا عندما حدثونا كيف كان يتم رجد محصولهم من القمح والشعير، عبر قوادم خشبية تحملها الحمير إلى مواقع بيادرهم في صيدور، قبل درسها على لوح مثقّب يجلس عليه أحد الفتية، ويجره ذات الحمار بشكل دائري حول نفسه؛ ليهرس قصل القمح وسنابله تاركا حبات القمح للطحين والغربال والمد والصاع.

رائحـــة دخـــان الحطـــب الذي أنـــتج إبريـــق الشـــاي في اللزابـــة، هي ذات الرائحة التي كنا نَشتَمُها عند سلق النساء؛ للقمح بعد انتهائهن من غربلة المحصول، وتنقيته من قطع التراب التي عجزت ألواح الدراسة عن فرزها.

الضحكات والكلمات في محطة اللزابة كضرب البارود لا تتوقف، وكأننا في سيرك مختصر، يديره فكاهيون على نسائم الهواء القادم من جهة "أبو فرج "ومنطقة "ظهر حمار"؛ لربما هو السبب الذي يدفع أطفالا بأعمارنا، إلى الإصرار على مرافقة الحصّادين، على الرغم من رفضهم وجودنا بسبب المشاغبة وقلة الخبرة في الحصاد، وإضاعة وقتهم في الأسئلة، فكانوا يوكلون لنا مهمة جلب الماء من عين أم زريق القريبة من أرض الحاج زعيم العزام، أو عين الجمل القريبة من أم النمل.

خروبة اللزابة ذات طابع مميز، يشبه طابع أشجار البلوط في منطقة البريدي، حيث كانت تخصص حقول المنطقة الحمراء؛ لزراعة العدس والبيقياء والقثاء والبامية، وغالبا ما كان أهالي المنطقة يحصدون نتاجهم منها في فترة المساء، التي تشهد في بعض الأحيان أعدادا أكبر من المشاركين في فترة الحصاد الصباحية؛ لأن البعض يكون قد عاد من عمله إن كان موظفا في دائرة ما.

بعد اخضرار القمح وقبل أن يكتسب لونه الذهبي ..

في نهاية فصل الربيع، وقبل دخول الصيف في ذروته، يكون القمح قد اتخذ الطول النهائي له؛ ليعلن مزارعو قريتي عن بدء حكايات آيار بتفريك القمح...لا بُدّ من استغلال الموسم؛ لتخزين كمية من الفريكة التي تبدأ بحصاد كميات من القمح الأخضر، وشوي سنابلها الطرية على الحطب حتى تذبل، وتفوح منها رائحة لا مثيل لها؛ لتحمل حباتها بعد الفرك طعم الماضي ورائحة الحاضر، بكميات تُجرش على حجر الرحى؛ لِتضاف إلى مؤونة تكفي؛ لشوربات حتى الموسم المقبل.

وفي حديث القمح للغرابيل ...

إبريق ماء عذب، وشاي الغزالين بكاسة الجرس، وفيّةُ العصر موعد لغربلة حصاد حقولهم، من القمح بغرابيل صنعت بأيدي المهرة منهم لفرز الحبات الصفراء عن جزيئات تراب حمراء، أبت ألّا تتمسك بما أنتجت... الذكية من العصافير حول تلك الغرابيل، تلتقط ما يملأ حوصلتها وتلوذ بالفرار، وتقود الكبيرات من النساء الموشومات بوشم الكبرياء، القريب من سن ذهبية تبرق كلما ضحكت، مهرجانا سنويا يفرز به القمح، ويتوزع ما بين أنصاف براميل قصتْ للسليقة، وما بين بذار للموسم القادم، وجزء يحفظ لزكاتهم ولزكاة فطرهم في رمضان وشيئا يطحن لخبزهم.

ما تبقى من محصولهم يباع لتجار يجوبون القرى بصاع يتخذ من أوزان المد؛ استعدادا لنقل القمح إلى مطاحن حجرية ورثوها عن اجدادهم وتخصص أموال نتاجهم لمصاريف يعتاشون منها، ولسداد ديونهم وأجرة الدّراسين، وربما الحصّادين وضمانة الأرض.

وفي سنوات القحط كانوا يلجؤون للشعير الذي كان لا ينقطع، ولا يتأثر بسنوات القحط والجفاف، بسبب قدرته على تحمل قلة الأمطار، وكانوا يستخدمون مكاييل معتمدة؛ للأوزان بثلاثة أشكال، منها؛ "الربعية"، وهي إناء أسطواني مصنوع من الخشب، يتسع لحوالي ٢ كغم، وسميت الربعية لأنها تساوي ربع الصاع، ثم يليها "النُص مد"، وهو نصف صاع مصنوع من نصف برميل متوسط، يتسع لحوالي ٨ كغم من الحبوب، ثم "الصاع" أو "المد" ويتسع لحوالي ١٦ كغم

بين سطور الذكريات البعيدة في الأربعينيّات من القرن الماضي

كانت عملية طحن القمح تجربة، تجمع بين ضجيج المياه ولحن الطبيعة الهادئ، حين كانت الطواحين العتيقة، تقف كالحلم الجميل عند مساقط المياه في الوادي المجاور للسوميات؛ لتعكس جمالية التصميم وروعة الهندسة، بعجلات تدور بطاقة الماء المتدفق عبر أوديتنا؛ لتُحَرِك محورا يدفع أقشطة "الرحاة"، القلب النابض للطواحين بقوة؛ لتفتت حبيبات القمح الذهبية، إلى طحين ناعم ينتظره الكثيرون.

في تلك الأودية وخلال عملية الطحن...

"كانت رائحة القمح والأمل تملأ الهواء، وصوت الرحاة وهي تتلاشى تدريجيّا؛ ليندفن في تفاصيل التاريخ" تمثل جوهرة الحياة البسيطة وتجسد روح الماضي العريق، والتفاني في الحصول على لقمة العيش وصنع رغيف الخبز من قمح صيدور، ومياه أوديتها.

بعد عهـــــــــد من الزمن...

تُرِكتْ تلك الطاحونة وبقاياها كأثر حجري، وإرث نستذكر به كُلّ ما كنا نسمعه عنها، وعن الغلال الوفيرة في تلك الحقبة؛ لتُرحّل عملية الطحن إلى غرف مغلقة في بعض القرى، كحوفا الوسطية وسمّرْ؛ بدلا من الفضاء المفتوح، وتسمى بابور الطحين، وهي بابور مطورة تعمل بالديزل؛ لإدارة محرك يعمل بالضغط نتيجة دوران آلاته بدلا من ناعورة الوادي وهواءه وماءه.

قبـل بـزوغ الشـمس، تكـون الأم قـد لفّـت المعجـن بقطعـة قمـاش بيضـاء تنتظـر أن يخمّـر عجينهـا؛ ليُقـرصّ إلى رغيّفـات بـذلك الطـابون القـابع في غرفة قديمة، أو وقادية اتخذت من ساحة البيت موقعا.

أرغفـة ألقيّـت بإطباقـة صـنعتها أم يحـيى مـن قصـل قمـح قـريتي، تُغمّـس بزيـت الزيتـون والسـمنة البلديـة مـع شيء مـن عسـل قطفـوه مـن خليـة كانت تُعشش بشجرة في الحجار.

في أعماق حقبة الخمسينيّات والستينيّات؛ حيث تنساب الذكريات بألوانها الدافئة كألوان الغروب على هامش الزمن، روى مزارعو صيدور، قصصا لا تنسى عن أشجار الزيتون التي تعانق الطبيعة والمغروسة بالتراب، الذي أثرى أحلامهم كلما اقترب فصل الخريف ونضجت الثمار على أغصان أشجارهم النبالية والرومية.

تنشط حركتهم بالقطاف، وتحمل على مفرش وبرميل وسلم خشبية حكايات مواسم قديمة، تركت بصمة من بقع زيت منتشرة بين أجزاء أدواتهم؛ لتربط كل موسم مضى، بذكريات لها من حُبّ الشجرة المباركة باع طويل.

على تلك المفارش اجتمعوا؛ لفرز حبات الزيتون عن أوراقها، كما يجتمعون حول تلك الصخرة العتيقة برفقة الزمن؛ لتكون شاهدا على عبور الأجيال بغرفة تُركت بها معصرة، صُنعت من حجر اسطوانية ضخمة.

تلك الحجر قُصَت من صخور البلدة ذات يوم، تحط رحالها وسط حوض صخرية أسستها الطبيعة؛ لتكون مكانا مثاليا؛ لهرس الثمار بدوران متناغم يجمع بين خطوات الدابة، ودوران العجلة بوزنها الثقيل فوق حبات ألقت بزيتها كقطرات البركة في القاع، تاركة بذورها في الأعلى؛ لتكون جِفتا ووقودا؛ للتدفئة في ليالي الشتاء القارص.

لكن الأيام باغتت الدابة وحثتها على الاستقالة؛ لتحل مكانها مولدات كهربائية تعمل بالوقود؛ مستبدلا فيها الفلاح علف دابته بجركن ديزل ليُشغل ماكينة تدير تلك الحجر بشكل أسرع وجهد أقل.

التطور لم يمهل تلك الحجر أيضا؛ لتلحق بالدابة بعد زمن قصير، حين أصبحت عملية الإنتاج بمرحلة أكثر حداثة وأقل إزعاجا، تعتمد على مجموعة "قفاف" تعمل بقوة الضغط عبر مكابس متخصصة؛ لهرس تلك الحبات وعجنها؛ لاستخلاص أجود أنواع الزيت؛ لأنها لم تكن تتعرض للحرارة أو لكميات كبيرة من الماء.

الحاج عبد الرحيم موسى البشايرة / مزارع من صيدور ١٩١٢ - ١٩٩٣

عُرس وخِراف .. زفة ومناسف

كـــان ذلك في صيف ١٩٩٢ (سنة الثلجة)

مـن مـدخل صـيدور الوحيـد؛ حيـث بيـر الذهـب، جـاء عصـر الأربعـاء بكـب داتسـون يحمـل خـروفين سمينـين ذوي قـرون كبيـرة وليـات واهيـة راقبنا ذلك البكـب، فـإذا بـه يتخذ مـن مـدخل بيت الحاج حسـين سـليمان مسـلكا له؛ ليضع مـا يحملـه مـن أكيـاس أرز رافقـت الخراف الـتي جـاء بهـا أحد المعازيم، كإهداء بمناسبة الفرح بزفاف فراس.

عـرس فـراس الذي انتظـرناه كـما ينتظـره أهـله يشـبه عـرس حيـدر المحسـن في كفـر أسـد، والكثيـر مـن أعـراس حوفـا وديـر السـعنة؛ حيـث تسـابقنا في المسـاهمة بجمـع الطنـاجر الـتي كُتِـبَ عليهـا، اسم صـاحب البيـت الذي أعارنا إياها بدهان أحمر.

وزعنـا مـع أخـوة العـريس بطاقـات تنـادي بالحضـور؛ لتنـاول طعـام الغـداء في يـوم الجمعـة، حـين كان هـو اليـوم المعتمـد للأعـراس الـتي كانـت كُلُّهـا أهازيج وشبابة، بجمعات لا تنسى.

بعد عِراك كبير بين أرجل الشباب والرجال المتحمسين للفرح مع أرضية الدبكات التي استمرت؛ لساعات من الزمن، و على ضوء تلك اللمبات الصفراء التي رُبِطَت بين عمود وعمود؛ لإنارة الساحة، تسبلت عينيّ فراس واحمرت خداه، والتصق الحِناء بكفيه بحروف وقلوب حُبّ، وبدأ يشوح إلى كل قريباته اللاتي يزغردن من على مقربة من برندة بيت أبيه.

صوت الطبلة بدأ بالهبوط، وصوت الشُبابات بدأ بالتلاشي كذلك، إنه إعلان؛ لنفاذ ترامس الماء، وجفاف ريق من غنى، وجمع كاسات الشاي الفارغة، ومغادرة من غلبه النعاس والتعب، بعد كُلّ تلك الأفواج من الدبكات.

على الضفة الأخرى من مراسم العرس، موعد حاسم للجزارين والمتأهبين؛ لتجهيز الذبائح... هُناك جُهِّزَت السكاكين والمسنات وقطاعات اللحمة والمفرمة البلوطية؛ لرجال يرتدون بِزات عسكرية وجزمات طويلة؛ استعدادا لمواجهة الخراف، التي ستذبح وتعلق على سلم السيبة متدلية برؤوسها؛ لفصل الجلود وفرز الحواشي والكرشات ودلق الباقي منها في أكياس، ترمى في مكب النفايات في العسالة.

أما باقي أجزاء الخراف ستصبح قطعا لذيذة، تنتظرها الطناجر المنصوبة على مواقد مؤقتة من بلوك العشرين أو الحجارة، بالقرب من شجرات البلوط، خلف المنزل المطل بأحد شبابيكه، على غرفة اجتمعت بها فتيات ونساء؛ لتجهيز البصل والطناجر المتوسطة؛ لطهي معاليق الخراف؛ لتكون عَشاءً لمن بقي في السهرة، ومن هو مساعد في التجهيز لوليمة الغد.

ذات الفتيات تنتظر وبعد أن بُح صوتها، الانتهاء من الذبح؛ للبدء في تنظيف الروس وغسلها، وهي من قامت بتنقية الأرز ونقعه بإشراف المختصة بطهيه.

في أركان منزل والد العريس، خُصصت غرفة للمسنات من قريباته اللاتي قدمن قبل أيام من العرس... في هذه الغرفة حكايات جميلة تربط ما بين عبق البركة، وحُبّ الناس لبعضهم البعض؛ حيث تضيف تلك النساء للفتيات، الكثير من الحِكَم والمواعظ في حياتهن، يلاعبن الصغيرات، ويمدحن البالغات بكلمة لايقه.

مناسف قبيل الزفة لا شبيه لطعمها...

سمّيت "اقرا " أي نقري الضيف ونطعمه، طُهيت بتعاضد من جميع نساء القرية المميزات في الطبخ... منهن المختصة بمرس الجميد والمتقنة لتنظيف روس الذبائح، ومنهن خبيرة في الأرز الموّرص، ويتولى الرجال مهمة سلق اللحوم على حطب بلوط جُمِع بتكاتف كثيرين على مدار أسبوع أو أكثر قبل العرس.

على جمر ذات الحطب، تخلط اللحوم بالجميد الممروس مع "الشنينة" التي أعدت خصيصا لهذا العرس، عبر "شكوة" تسمى بالسعن، صنعت من جلد الماعز أو الخروف، وربما من جلد عجل صغير، كان لها صوت مميز، تصافقت به رغوة الشنينة بكرات زبدة شهية.

المختصون من رجال القرية يتولون تنسير" تنسيق " المناسف ورش اللوز والصنوبر، وتزيين الرأس بعروق بقدونس خضراء، لا نعلم من صاحب النصيب في مضغها مع لسان ومخ الخروف، أمام حشد كبير من الشبان، الذين ينقسمون بهمةٍ إلى قسمين، يعقلون على أعناقهم بشاكير صغيرة.

قسم يحمل" كبشية" ودلو لبن، متخصص بتشريب "المليحية" أمام مواكل الضيوف، وقسم يحمل إبريق ماء، ينتظر من ينهي طعامه ليتقدم إلى غسل يديه إستعدادا للسلام على والد العريس، وتقديم ما به النصيب من النقوط النقدي.

وفي لحظات تناسى فيها العريس المشورب طعم المنسف، كان يستعد لتلك الزفة التي سيكون خلالها مستظلا بمظلة سوداء، زينت بعدة ألوان من الشبر والبالونات، وتبدأ الزفة بـــ "طلع الزين من الحمام الله واسم الله عليه" متزامنة مع أصوات طلقات البارود والمسدسات.

تتسارع لالتقاط فوارغ الفشك الساخنة، وحبات حلوى جاءت بها نساء القرية؛ تعبيرا منهن عن الفرح أمام أم العريس، التي تكون غالبية أغاني الزفة عليها بـــ "نادولي أم العريس خليها تسقيني ميه"، وهو مايدب الخجل بكُلّ أركانها، فهي أمام عدد كبير ممن يتغنون بها وبابنها العريس، بمقربة من سور مدرسة البنين " محطة الزفة الأخيرة"، ومن بين الحضور أفراد عائلة، ستكون استراحة العريس بمضافتهم، قبل لقائه بعروسه.

غالبيـة مـن حضـروا الزفـة يعـودون إلى بيـت أهـل العـريس؛ اسـتعدادا لـتلك الفـاردة الـتي مـا إن بـدأت ملامـح انطلاقهـا تطفـو أمامنـا، تبـدأ الأنفـاس بالتسـارع والعـرق بالـتزارب؛ خوفـا مـن تركنـا بـين زحـام مـا خلّفـه الحفل من الطناجر، وأغلفة التوفي والكراسي المبعثرة هُنا وهُناك.

منـا مـن كان يـترك كُلّ شيء ويراقـب مسـؤول الباصـات؛ ليـدخله كواسـطة لقبـوله في القـافلة، الـتي ربمـا تحتـاج إلى عـام آخـر؛ لتتكـرر وإن قصُـرَت المسـافة، لكنهـا تحمـل الكثـير مـن المـزايا في غـرة طفولتنـا، جُلّهـا التشـويح من نافذة الباص؛ للواقفين على جنبات الطريق.

من لم يحالفه الحظ، غالبا ما يقوم بمداعبة سائقي سيارات وباصات تلك الفاردة، بمحاولته إغلاق طريق بير الذّهب أمامهم في العودة، بأغصان شجرة يابسة، كان قد جرّها من مكان قريب، مضيفا إليها القليل من الحجارة؛ مرددا كلمة **بسيطة أنا بفريجكوا**

جميعنا أحب ذلك العريس، الذي كان ينتهي فرحه مع نهاية الفاردة بصمدة سريعة على كرسيين، وضعا على طاولة خشبية متينة، عُلّقَت خلفهما سجادة حمراء، وتطرق إحدى قريباته رأسه برأس عروسه؛ إيذانا بأنهما التقيا وأخيرا على ذات الوسادة، وعليهما الانصراف، وبدأ دخلتهما.

نعود إلى بيوتنا منهكين، محملين بكثير من الكلمات التي نرددها دون وعي، كنا قد التقطنا شيئا منها في التعليلة وشيئا آخرا من الحِناء والزفة أشهرها... (درج يا غزالي، وازرع واقلع بيتنجان) والكثير من المواقف الولادة لابتسامات دون موعد، كما نتصفح بصمت شديد شريطا كاملا دار لمدة يومين أو ثلاثة في الذهن.

كـان مـن تلـك الأعـراس فرصـة للتصـالح بـين بعـض العـائلات الـتي قطعـت أوصـالهم نتيجـة خـلاف مـا، وفرصـة لالتقـاء أبنـاء الـبلدة المقيمـين خارجها بأقـاربهم، وجـيرانهم في صـيدور، وتتكـون في بعـض الأعـراس قصـة حُـبّ بـدأت بنظـرة غـير مقصـودة، لكنهـا أقـوى مـن شـباك الصـيادين المحـترفين، وربمـا تكـون بابا؛ لاختيـار إحـدى نسـاء القريـة عروسـا؛ لابنهـا مـن بـين الحـاضرات المتزينـات بالوقـار، مـن بنـات القريـة أو الضـيوف مـن الخارج.

***

عـودة المغتـرب مـن سـفره غالبـا مـا تؤجـل هي الأخـرى، للعطـلة الصـيفية أو لمناسـبات كبيـرة، كالفـرح أو العيـد إن تـزامن مـع الصـيف، وكان لهـا ملامـح مختلفـة عـما هي عليـه الآن؛ حيـث وعـدنا ذات مـرة، أن نكـون ضمـن ركـب يسـتقبل خـالي باسم في مطـار الملكـة عليـاء الدولي، قادمـا مـن الـولايات المتحـدة الأمريكيـة بعـد غيـاب سـت سـنوات؛ ليحظـى باسـتقبال كبير، في المطار وأمام بيته في صيدور.

كان وصـولنا إلى المطـار بــ بكـب داتسـون، برفقـة عمـي أحمـد بسـبب غيـاب والدي في عمـله حينهـا، هي المـرة الأولى الـتي سـأزور فيهـا عـمان **وذلـك عـام ١٩٩٤ "النعيمـة - بلـيلا - المصـطبة - عـين الباشـا صـويلح - خلـدا"**،أسماء على لافتات، أقرؤهـا للمرة الأولى في حيـاتي... جميلة عـمان حين شـعرت أنني أدخـل دولة أخـرى، فـأنا طفـل مـن قريـة نائية أكبر طموح لي، مجمع الأغوار القديم.

ذُهلنا بكُلّ ما نراه في شوارع العاصمة عَمّان، ربما أنستنا تلك اللحظات الكثير من الأمور، وسافرت بنا إلى أمور أكثر، جُلّها أن هذه المدينة في بلدي ولم نزرها من قبل.

الوصول إلى المطار كان عصرا، استهجنا فيه شكل الطائرات، وحجمها وهبوطها وإقلاعها، كانت أغلب ذيولها، بألوان تشبه شكل غلاف معجون الأسنان، الذي كنا نراه في إعلانات التلفاز، مما أثار موجة من الضحك الهستيري بيننا.

جميع الأقارب، ممن وصلوا قبلنا إلى المطار، شعرت أنني أراهم لأول مرة علما بانطلاقنا سوية من صيدور، لكن الطقوس مختلفة تماما لطفل يصل هُنا، كُلّ شيء يبدو غريبا وجميلا، مع استقبال من نشتاق لهم في غربتهم.

***

بلغت الصبا في قريتي وما زلت أسمع في كل مرة حكاية جديدة عن الذّهب وأسراره، التي تشبه ما يراودني من أسرار تخفيها بير الذّهب، فتجاوزت كُلّ ما قاله الناس عن الغول التي تسكنها، واقتربت منها دون خوف ولا قلق، وكأني أقترب من عجوز جاثمة على أطراف صخرة منسية، لا يد لها ترفع ولا صوتا يسمع...

استيقظي أيتها البئر
كفاك سباتا
لقد جئتك مختلفا عما سبقوني إليكِ
أخبريني مَن مر مِن هُنا؟
ومَن سكن هُنا ومَن كان هنا؟
هل لكِ أن تعيريني شيئا من حروف فك الطلاسم الملخبطة بين حجارة صيدور وأعمدة أم قيس؟
المعذرة أيتها العجوز
يبدو أنك لا تعين ما أقصده بصيدور، أو أم قيس، ولا حتى بجارتك حقل العمود
إذاً سأغير سؤالي، هل أنت بوابة صيدور كما كانت هي بوابة مملكة جدارا الجنوبية؟

اذهب أيها الفتى: مَن أرسلك لتقض مضجعي بعد كل هذه السنين؟
أنت من طينة لا تشبه طينة من كانوا هُنا
وتتحدث بلغة غريبة عما كانوا ينطقون....
أيتها العجوز كفاكِ تحفظا وانطقي
أين اختفت آثار خيول بومبيوس؟
ومَن نحت له تمثالا مِن حجارة قريتي؟
مَن اجتثك من قعر الأرض؛ لتبقي صامتة
لا ظمأ تروين، ولا حكايات تتلين؟

الحاجة بدرية والرصد...

رافقـت ذات مسـاء الحاجـة بدريـة بمشـوار إلى منطقة"البريـدي"؛ حيـث كان أبـو ماجـد، يبـني بيتـا لابـنهم هنـاك، وأثنـاء المسـير في الشـارع مـررنا أمـام شجـرة تـين كبيـرة، تقبـع في ظلهـا صخـرة كبيـرة بشـكل هضـبة، كان يسـتلقي عـلى ظهرهـا أفعـى غريبـة الشـكل قصـيرة بلـون أسـود لامـع ورأس أبـيض عـريض بقـرنين بيضـاء، تحـيط بهـا مجموعـة مـن الأفـاعي الأخـرى المرقطـة، والمخيفـة بـرغم صـغر حجمهـا، مـن بينهـا واحـدة بـأربع أرجـل تشـبه التمساح.

الموقـف لـيس بمفـاجئ ولا بغريـب، ولم يسـتوقفني فحسـب، بـل أرعبـني لدرجـة أنـني لم أسـتطع إكـمال المشـوار مـع الحاجـة بدريـة، وأرداني مريضـا بالفراش لمدة أسبوع على إثره.

الكثيـرون ممـن سمعـوا الموقـف قـالوا: إنـه رصـد، وهُنـا يجـب ان أعـرف كُلّ شيء عـن الرصـد، مـنهم مـن قـال: إنـه حـارس عـلى ذّهـب، أو شيء ثمـين دفـن بمقربتـه، ومـنهم مـن قـال إنـه رآه قبـل عشـر سـنوات؛ ليؤكـد مـا رويتـه لهم من مشهد غريب.

قصص عديدة دارت حول كلمة رصد، تشابهت معها كثير من القصص في بير الذّهب، لكن بأشكال مختلفة ومواقع مختلفة أيضا، أغلبها يتحدث عن أفعى ضخمة تقطن بين الصبرات على أطراف حاكورة المختار منذ عشرات السنين، وقد سمع بها أجدادنا من آبائهم ومن سبقوهم، وهو ما ولّد بداخلي قوة أكبر؛ للبحث ما بين أسرار ما أسمع به، وما بين سطور بير الذّهب، من طرائف وحقائق وخرافات.

***

العُكّسة والفزعة...

كان من عصر تلك الجمعة هواء عليل، يلاطم شجرة اللوز الشاهقة القريبة من شجرة بطم، تساقطت حبوبها وانحدرت مع أول صخرة منزلقة باتجاه زيتونة في كرم صغير، طلب مني أبي أن أعيد فيه ترتيب ما جرفته السيول من حجارة وركام أتربة، وأغصان متكسرة في موسم الشتاء الماضي.

البداية كانت من جمع الأغصان اليابسة التي تعلقت بتلك الحجارة، ومنها ما كان وقودا لإبريق شاي، وضعت مع ماءه القليل من حبات الهيل...
بدأتُ بمراقبة النار تحت الإبريق، خوفا من توسعها هُنا أو هُناك؛ حيث أن العُشب الجاف سريع الاشتعال، خصوصا في هذا الوقت من النهار.

ومالبثتُ بإعداد خطة العمل على فرز الحجارة الصغيرة عن الكبيرة، إلا وصوت يُشبه صوت الطفل الرضيع، يأتي من جوار جذع شجرة لبنى متوسطة الحجم، أسفل صخرة كبيرة تدلت على مساماتها المتربة بعضا من عروق الزعتر البري... سارعت لإخبار عمي المختار بما سمعت.

هـرع المختـار، وكُلّ مـن سمـع صـوتي أقـول: إن هُنـاك طفـلا صـغيرا يـبكي عـلى أطـراف الكـرم... وصـلنا المـكان؛ ليسـحب المختـار لُكسـا صـغيرا أحضـره معـه برفقـة بارودتـه، ومـا إن سـلط إنارتـه إلى الداخـل إلا وعيـون تـبرق لتعـاكس الضـوء الواصـل إليهـا، ضحـك المختـار حينهـا وقـال: إنـه حيـوان العُكّسَـة، وهـو حيـوان يكـبر الأرنـب الـبري السـمين بالشـيء القليـل، لونه أسود ورأسه أصبحٌ بشيء من البياض.

حـرك صـوت العُكّسَـة الحـس الإنسـاني عنـد الكثـيرين مـن أبنـاء حـارتي ظانين أن أحدا ألقى بطفل صغير هُناك.

هـذه حـارتي، وهـذه قـريتي تهـب دائمـا؛ لتكـون العـون لمـن احتـاج بنـداء أو بـدون، وهـو تمامـا كـما حـدث عنـدما نادى مـؤذن المسـجد: أن حريقـا كبـيرا يقـتحم أرضـا لفـالح نهـار في منطقـة الحجـار، كانـت دقـائق قليلة فقـط تفصـلنا عـن صـوت المـؤذن، وصـوت خطـوات المتراكضـين مـن الشـباب نحـو تـلك الحقـول المشـتعلة، ليسـاهم كُلّ مـنهم بمـا اسـتطاع؛ لإخـماد النـار الـتي كانـت قـد أوشـكت مـع منتصـف الليـل، عـلى نهـش نصـف أشجـار الزيتون، والقندول والخروب في تلك المنطقة.

شمس حارقة ولعنة جلب ماء الشرب...

منتصف حزيران من عام ١٩٩٤

أبلغ من العمر حينها ثلاثة عشر عاما، والتاريخ موعدا لآخر امتحان في العام الدراسي " **١٩٩٤ – ١٩٩٥** "، مرحلة أنتقل بها من الصف السابع إلى الصف الثامن، لكن جلب ماء الشرب من مكان بعيد في تلك الشمس الحارقة لن يكون سهلا، رغم وجود بئر على بعد لحظات قصيرة من " خابية " أمي الفخارية المركونة بإحكام في زاوية المطبخ ولكُلّ سبب مُسبب بحكم الحياة الريفية المتواضعة.

في قريتي يعتمد الناس على مياه الأمطار الصافية للشرب، وليس الجميع هُنا يمتلك بئرا خاصة به، وما عليه هو جلب الماء من بئر جار أو صديق، أو من بئر العائلة، لكن الحظ لا يحالف الجميع في كثير من الأحيان.

حبل البئر يمكن ألّا يتجاوز طوله أربعة أمتار، وعمق البئر أيضا يمكن ألّا يتجاوز أربعة أمتار، لكن لا فائدة من الماء دون دلو وحبل، ولا فائدة للحبل والدلو إن نفذ الماء.

من الطبيعي أن يخفي صاحب البئر دلوه وحبله عن غيره؛ لشُح المياه في بئره التي أوشكت على النفاذ قبل موسم الشتاء المنتظر، لكن الشعور لن يكون سهلا حينما أكون طفلا، ومستقي الماء الذي يبحث عنه في تلك اللحظة هي أمّي، **"أبي الغائب عن البيت في تلك اللحظة"** لا يعلم ما يدور من حجب في باحات تلك الآبار، التي ربما كانت يداه هي أول من تساعد في تشييدها، لكنها الآن تحت سلطة آخرين.

لا بأس... إن الحلّ بسيط، وجلب الماء من بئر بعيدة عن البيت لن يكون صعبا إن كان بمقدوري حمل الجركن، وسيسهل الأمر أكثر إن ساعدني فيه أحد من إخوتي... الماء ضروري بالنسبة لنا، فنحن نشرب الشاي كثيرا مع الخبز الأبيض، والقليل من الزيت والزعتر خاصة قبل النوم، وعند الإفطار.

إخفاء حبل الليف ودلو الجلد الأسود ليس مهما إن وقف الأمر هُنا لكنّه سيصبح مهما إذا رافقته كلمات صاحبه، تستقر إذا أصابت قلبا عفيفا وعزيزا على صاحبه، الدموع البريئة دليل على تحمُل الكثير والكثير، ودليل على الكثير مما أخفته أمي في صدرها، وأنا لن أقف مكتوفا بعد اليوم.

لوهلة شعرت أن العاطفة وراء اتخاذ أهم قرار ينقذ أمي من لعنة جلب ماء الشرب في صيف حارقة، هُنا كان قرارا كبيرا يعتري جسدا نحيلا، وأملاً بعيدا إذا أصررت على الاستماع لعاطفتي... تارة تدفعني نحو قرار فوق استطاعتي بكثير، وتارة تدفعني لمغامرة في حياتي، لوقف نزيف أطهر عينين خُلقتا على الأرض.

الصخرة حاضرة في بقعة تحيطها نواعم العشب، وقد أنهى الزمان الطويل كثيرا من ملامحها... وبأدوات بدائية حين ذاك، صرخت أنا وإياها سويا عند أول طرقة، اجتثت منها قطعة صغيرة، وكادت تجتث جزءا يسيرا من أصبعي الهش أيضا.

يتوجب عليَّ الانسحاب بسبب إصابة عمل، وعلى الرغم من انشغالي بذلك الألم، والوقوف أمام نقاط الدم البريئة، إلّا أن الطموح بالوصول إلى عمق البئر يوما ما لم يتوقف، وبِتُ أراقب تعافي الأظفر المقروط لحظة بلحظة.

أخيرا بدأت أحركه كما أشاء، فبعد الانتهاء من حلّ الواجبات المدرسية بمجهود ذات الأصبع، سأعاود مجددا محاولة أخرى، عليَّ أن أكسر ذلك الحاجز الذي بت أفكر باختراقه، وأصر على ذلك كلّما زادت الحاجة للماء، واشتدت حرارة الصيف، وما لبثت أن استأنفت الطرق على ذات القشرة الصلبة، إلا وتختلط صرخاتها بضحكات الكثيرين من حولي... تناسيت الكثير منها، ونسيت بحكم الزمن الكثير أيضا، لكن أكثر ما يزعجني هو وصفي بالمجنون، الذي يسعى؛ لتحقيق حلم صعب المنال ... **حينها أدركت أننا نشبه كل مجتهد وذكي بالمجنون.**

لا بأس.. لا وقت لديَّ الآن؛ للالتفات إلى كلمات صعب عليَّ الرد عليها، لا ألومهم، فالعمر الصغير والجسد النحيل، جعل من توقعاتهم خير دليل.

انتهى فصل الخريف، وحلّ فصل الشتاء، وبدأ المطر ينهمر ويزداد وحلمي للوصول إلى الأعماق يزداد أيضا، المعذرة يا أمي، انتهى عام على رحلتي الصخرية ولم أصل بعد، إن الكتب والأستاذ، يأخذان شيئا من وقتي، لكن الوقت الأكبر يركز على ذلك القرار الصعب.

لا أنكر أني رسمت الحلم كثيرا في حصة الرياضات، فلحظات شرودي عن الأستاذ غازي، كانت تنقلني إلى نقطة ارتواء الظمأ في الأعماق المجهولة وأبعاد البئر، وقطرها وزواياها.

إخوتي الصغار كما غيرهم من أطفال الحارة يراقبون وعلى جنبات أكوام التراب التي تنبع من باطن الأرض، كُلّ تحركاتي وتحركات الحبل على بَكَرةِ النشل، لكن هُناك حبل أسود احتياطي، يَعلَق بإحدى درجات السُلم في الأسفل، وطرفه الثاني أمام أخي أحمد ذي الأربعة أعوام حينها.

وضع أحمد طرف الحبل في فمه وولّى هاربا، يقلد المهر ويصهل مثله وعندما وصلت طول الحبل إلى حدها، عَلِقَت بأسنانه واجتثت اثنتين منها دون رحمة، فهو لا يعلم سوى أنها حبل حرة لا تتقيد بأي شيء.

جاء أبي يراقبني بصمت بعد ما توقف النزيف من فم أحمد، دون أن يوجه لي أي كلمة، وكأن عيناه تقول: كيف لي أن أعاتبك فوق ما أنت به من تعب وإرهاق؟

تلك العيون، قرأت بها صفحات كثيرة من الحنان والخوف من مخاطر ما أقوم به، كأنها تقول لي: عليك أن تكون منتبها أكثر، خصوصا أن القاع بات أكثر صلابة، كلما اشتدت عليه الضربات.

تُهْتُ كثيرا بين صمت أبي وبين تلك الصلابة... كنت على يقين كبير، أنه لن يقف مكتوفا أمام سواعد رقيقة، تحاول اجتثاث صعاب الرمل وقساوة الصخر.

تكاثرت الأسئلة فوق رأسي ماذا، ولماذا، وكيف؟ سؤال مهم انتاب كثيرين، لكنهم بدلا من أن يوجهوه نحوي، حولوه إلى وسيلة لإضحاك أنفسهم، إلا أنه انطلق يوما من أحدهم وصوبني، فما كان مني إلا إجابة حزينة، ومنه رد بانتظرني سأعود.

ظننت أنه يشبه كل من رأى من الأمر قصة تضحكه وتشمته بجسدي النحيل، لكن خاب ظني هذه المرة... لقد عاد بكُلّ حماس وفزعة، محملا بحبال وإضاءة لتجاوز ظلمات الليل، بيده القليل من الحساء الساخن وبرفقته عدد من الشباب.

هبوا بسواعد ملؤها العزيمة والإيمان بإتمام ما نسعى إليه، ما كان مني إلا الاستغراب، والوقوف في لحظة صمت قصيرة، رأيت خلالها أمي وكُلّ نساء الحارة، تستقي الماء من بئر أحلامي الصغيرة.

ضرباتي الصغيرة المتواضعة، فجأة تتحول إلى ضربات بسواعد عدة حين جاء العون؛ ردّا على صمت عاطفتي المليئة بالبراءة، والتناسي لكُلّ ما سمعته من تشمت وإحباط، وكسر للأجنحة.

أبي له من الجهد ما يكفي لإرواء ظمأ حي بأكمله، إذ يُعلن انضمامه إلى فريق قد ينجيني من سنة أخرى في مشوار الوصول إلى العمق المراد.

يحلّ غروب الخميس ولا استراحة في نهاره، عرق يتسرب من فروة الرأس تحت إبريق تصب الماء الفاتر فوقه بجنية الأم؛ لتختلط به نُخالة الشِحن المتسرب من زوايا تلك القُفة السوداء، برغوة صابونة مفتاحين، والأصابع المتعبة تبعد ما قد يصيب بها العين من حرقة.

لا بأس .. غدا الجمعة، ولا مانع من استراحتين في آن واحد استراحة من صوت بكرة النشل، واستراحة من الواجبات المدرسية المؤجلة لمساء السبت، وهي فرصة أتقلب بها بين أصوات الحارة وصوت التلفاز، تارة بائع خضار أو مشتري خردوات وعُتق، وتارة فارس الحلقة مع "منتهى أبو دلو" في برنامج يسعد صباحك،على شاشة التلفزيون الأردني... كُلّ ذلك يسبق صوت خطبة الجمعة، القادم من مكبرات صوت المسجد الوحيد في القرية.

في عصر الجمعة حكايات تختلف عن أي يوم آخر، موعد مع مباراة محلية على قناة عمان الرياضية، أو على ملعب إربد البلدي، ومقدمة مسلسل "أبو عواد" عامل عنتر بن شداد، وغيره كسمعة ومرزوق ومسلسل بير الطي.

يُقبل الليل وتبدأ مسيرة قصيرة من التصفح والتفكير بمشوار الغد، وربما ببعده أيضا، كُلّها صفحات تحمل صورا للبئر وخرزتها ومحيطها والقاع ومكان المزراب.

يحلّ النعاس تحت حرام كاروهات أخضر، سطت أطرافه المشربشة بانتظام على أطراف أصابع قدمي؛ لأنام دون كدر ودون ذنوب تُؤنِبُ الضمير، ولا هواجس تداعب القلب حين لا عشيقة لها الرسائل تكتب، ولا السهر قُربان لها يقدم، أجثم في فراشي بصمت يشبه صمت البئر المتروكة هُناك، لكن صمتي لحظات قصيرة ما قبل الغفو.

الهمة في صباح ذلك السبت عالية ومختلفة، والحماس يتعاضد مع سواعدي على أمل تشييد بئر أمي قبل موسم المطر القادم، فالاقتراب من العمق لم يعد بالحلم البعيد، وأصبحت الأرض أكثر ليونة والتراب يتغنى مع ضربات الفؤوس، التي صنع عددا كبيرا منها حسين الصالح بمنشاره وفأرته المتواضعتين، وكأنه يقول لي استمر.

جميل ذلك المساء حينما جاء أبي يحمل بيده بابا حديديا؛ للبئر اشتراه من سوق الحدادين في إربد، رافقتها سيارة بعدد واهٍ من أكياس إسمنت تحمل على وجهها صورة مدينة البتراء الوردية.

برغم ما مررت به من مرارة المواقف، إلّا أني الآن سعيد وأصبحت على مشارف أول شربة ماء من البئر التي رافقت هاجسي نحو ثلاث سنوات.

الشعور بالجد قد بدأ، وبدأنا بإحاطة فوهة البئر بالحجارة والطوب لفرش التراب المنشول من القاع مع الأيام؛ لتحديد أبعاد الساحة

هاهو أبي يستعد للتشييد النهائي برفقة عمه محمود اللافي في الجدران وفي القاع الذي أصبح خزانا إجاصيا، يتسع لعشرات الأمتار المكعبة من الماء الصافي، الذي وصل إليه من السماء عبر غيمات نقية تعانق سطح البيت الدافئ شتاءً، وصيفا وخريفا وربيعا، بهمة أب وأم يقودان أبناءهم في رحلة التربية الحميدة.

بعد ثلاثة مواسم من الأمطار، أصبح لتلك البئر فضلا كبيرا بإعداد أول كوب من الشاي دون مقابل، ودون استقاء الماء من أي مكان بعيد، فماؤنا اليوم طهور من سطح طهور، عبر أنابيب طهورة، تبارك به كُلّ من ضحكوا في أول يوم، فنحن وإياهم في الاستقاء سواء، لكن ببسمة طاهرة من قلب أبي ويد أمي.

هنا تعافيت تماما من كُلّ المتاعب والآلام... تناسيت مع الأيام كُلّ أنات المفاصل والتأمت جروح الكلمات، تجاهلت الكثير من المواقف حفاظا على جسدي النحيل، الذي اجتثت منه البئر الكثير من الدموع والكثير من العرق.

تناسيتها تماما وبقي منها موقفان يسجلان في سجال حياتي إلى الآن: الأول تعلمت منه أن العاطفة في كثير من الأحيان طريق لتحقيق طموح صعب، وذلك عندما سالت دمعات أمي عند إخفاء بعض أصحاب الآبار حبل الاستقاء عنها؛ لتبقى يومين دون ماء.

أمـا الموقـف الثـاني: هـو مـا تعرضـت له أحـد الأيام، حـين مـر ظـاهر النصـري مـن أمـام فوهـة البـئر وألقى وعـاءً مملـوءً بالرمـل عـلى رأسي، وقـام بسـحب السُـلم وإلقائـه بالأعـلى، لأبقـى بالقـاع أنادي وأصرخ نصـف نهـار دون أن يسمعني أحد.

بقيـت إلى أن مـر عمـي أحمـد الذي يكـبر أبي مـن أمـام الفوهـة؛ ليسـمع صـوتي مـن أعـماق البئـر وأعـماق أنفـاسي، مـع صـوت الرعـد الذي يـؤشر لمطـر غزيـر في تـلك الليلة، ويلتفـت أن أحـدا في قـاع البـئر يتعـرض لأمـر مـا، فـنزل السُـلم والفـرج والمطـر في آن واحـد " **وهـي رسـالة أن الفـرج قادم لا محالة، مهما طال الصبر، ومهما كانت لحظاته مؤلمة وصعبة** "

***

إربد ومنعطفات وادي الغفر...

في رحلتنا إلى إربد، صعدنا إلى الباص أمام موعد مع مشوار، يحمل الكثير من الحكايات القصيرة، بحكم قصر المسافة بين صيدور وإربد التي لا تتجاوز نصف الساعة، لكنها تمر بمراحل كثيرة ومنعطفات خطيرة، ومواقف عديدة تختلط بصوت سمر العزيزي من راديو الباص وصوت الهواء من نافذة السائق، التي تعيد إلينا كل ما نفثه من سيجارته إلى الخارج.

الطريق ما زال طويلا، فهو يمر من بعد مثلث كفرأسد بمدرسة حطين بِقَم، وقرى قميم وحوفا وكفرعان وجُمحا، ومنها إلى مثلث كفريوبا "**المحطة الأخيرة لطلاب مدرسة الزرنوجي**" التي تسبق وادي الغفر، المؤدي إلى مجمع الأغوار القديم.

أحد الركاب يرتدي زي الفوتيك الأخضر، وشماغا يُسوِرُهُ عِقال أسود يراقب بين الفينة والأخرى، بضائعه من الزعتر والميرمية، أو نتاج حقوله من البيض أو التين وورق العنب، وربما مجموعة من المكانس أراد أن يُسوِقَها في الحسبة الفوقا، بالقرب من مسجد إربد الكبير؛ حيث ينتظره أشخاص كُثُر.

راكب آخر يُطالع كتابه بِهَمَم يبدو عليه مجتهدا، ووقت اختباراته الجامعية قد حان، لكن صوت طفل مبعوج، أو يستعد لبزوغ أول أسنانه يعكر الصفوة قليلا... لا بأس إنه يتألم، ولا بُدّ أن يُشرف عليه طبيب مختص.

تخلو الرحلة من أي هواتف نقالة، وتقتصر على صوت الراديو وحديث الركاب فيما بينهم، ما يوفر فرصة لعقد لقاءات حول نتاج مواسم الحصاد أو الزيتون وموسم الأمطار، أو حول حدث أخير يتناوله أبناء القرية فيما بينهم، فلكُلّ حادثٍ حديث.

يصل الباص إلى مجمع الأغوار القديم ليكون محطة الانطلاق لما بعد، ففي المجمع عصير التمر الهندي على عربة اعتدنا عليها صيفا، والهرايس وكرابيج الحلب المقطرة شتاء، وبجانبه مخبز يتميز بالخبز المشروح والقرشلة، وهُناك محال للمواد التموينية، ومن يُصلِح الأحذية ويخرط المفاتيح، ومن يبيع الأعشاب والزهور، ويركب العطور.

الأجـرة مـن صـيدور إلى إربـد خمسـة عشـر قرشـا، وعشـرة إلى كفريـوبا وشـلنا إلى كفرأسـد، وغالبـا مايـدفعها عـن الراكـب، قريبـه الذي يجلـس بمحاذاة السائق.

أحـدنا يتوجـه إلى مجمـع عَمّـان حيـث المحطـة الأكـبر، ومنهـا إلى محافظـات أكـثر، وآخـر إلى سـوق البـالة أو لمراجعـة دائـرة الأراضي أو البنـك وغـيره إلى محـال الأقسـاط لشـراء أثاث لعـرس ابنـه، وأم تحتـاج مراجعـة الطبيـب برضـيعها، وفتـاة تـتعلم الخياطـة والتطريـز في معاهـد المدينـة، وطـلاب يتوجهـون إلى جامعـة اليرمـوك وكليـة الحصـن... مـايعني أن كُلا في شـأن يُلهيه.

صـوت إسـتريوهات بيـع الكاسـيتات بـدأت تنطلـق شـيئا فشـيئا، وتلاطـم أصـوات باعـة الخضـار في الحسـبة، وهـي أصـوات تجمـع بـين باعـة منتجـات الأغـوار والقـرى الزراعيـة، وبـين أصـوات المتسـوقين بـ كم البنـدورة ورفيقاتها من الخضار والبقدونس، والعكوب والعِلِت والخُبيزة.

حال المناداة على بضائع الحسبة، هو حال المناداة على الألبسة في سوق البالة، التي يتردد إليها الناس بحثا عن حاجياتهم، بين بسطات تختلط فيها ملابس وأحذية غُسلت وغُلّفت، وصُدّرَت للأردن من عدة دول أوروبية سُميت السوق " بسوق الألبسة الأوروبية نسبة لها " وغالبا ما تكون ذات جودة عالية تحتمل الدَعك والغسيل، أكثر من أي نوع ملابس أخرى.

في شوارع مدينة إربد وأحياءها؛ لكُلّ منا ذكريات ما زالت تداعب أفكاره، فكان دوار الساعة و ما حوله من محال مشهورة وأصوات ورائحة القهوة التي ما كنت أشربها حينها، هي من كبرى ذكرياتي خصوصا عندما تتزاحم أصوات زوامير السيارات، مع صفارات رقباء السير على إشارة شارع الهاشمي ودوار وصفي التل، القريبة مِن صوت مَن يُنادي بأسماء روايات جديدة، أضيفت إلى كتبه التي استلقت على مربع بسيط من تلك المنطقة القريبة من شارع السينما؛ حيث مَحال الألبسة والمجوهرات، والعشرات من المختبرات الطبية، وعيادات الأطباء المختصين.

التــواءات ومنعطفــات وادي الغفــر الســحيق، هي طريــق العــودة إلى صيدور... طريـق ضيقة وخطـيرة تخلـو مـن دوريات الشـرطة والحـواجز والشــواخص والإضــاءة، ومجـاري للســيول في الأمطــار، إلا أنهــا كانــت شحيحـة الحــوادث حـين كان حـس المســؤولية عنـد الســائقين، وارتفـاع نسبة وعيهم أكبر مما لو كانت الشوارع مزدحمة كما هي اليوم.

بعضا مـن أجـواء مدينـة إربـد، تتشـابه أحيـانا مـع أجـواء متواضـعة صنعتها عـدد مـن الدوائـر الحكوميـة والمحـال التجاريـة في كفرأسـد، الـتي نـتردد إليهـا؛ لإصـدار هُوِيـة أحـوال مدنيـة أو مراجعـة طبيـب في المركـز الصـحي، أو التسـوق عـلى مسـتوى خفيـف، وشراء القرطاسـية مـن مكتبـة أبـو عـلي البشـايره على دوار البلديـة، أو لحلاقـة الشـعر بصـالون أبـو الخير، حين نستعد لاستقبال المدرسة أو العيد.

ذلـك العيـد الـذي كانـت لـه بهجـة خاصـة تشـبه الطقـوس في كثـير مـن القـرى الأردنيـة... يـوم يسـبقه ثلاثـون يومـا أو تسـعة وعشـرون يومـا مـن الطاعـات والـولائم، وتبـادل الأطبـاق بـين العـائلات ممـا صـنعته الأمهـات مـن قـوت بيتـوهن، وتتصـل أحيـانا مـع انطـلاق مـدفع الأذان بصـوت الشــيخ عبد الرحيم أبي غنيم.

نكهة صباح العيد مصحوبة بريح الهيل، والقضامة وحلو بيض الحمام وصوت فتاش بيد الأطفال، ومهباش تعزف لحنا خاصا بأنامل الأب الأكبر في العائلة ليعلن عن قرب استعداده لاستقبال الضيوف في مضافته أو عُلّيّته.

التي كان أكثرها بُني ما قبل العشرينيّات، وبقيت كإرث يُذكرهم بآباءهم الأولين الذين سقفوها بقصب جاءوا به من "أبو فرج" وُجزء من جانب شجر الصفاف المحيط ببيارة صالح، وآخر مازرته من تلك المضافات هي مضافة الحاج أبو عشب مهيدات، ومضافة الحاج ركان مهيدات عام **٢٠٠٧**.

مضافات دون مكيفات أو مراوح هواء، لكنها تحيا بأنفاس رجال تزينت رؤوسهم بالشورة البيضاء والفكر الرزين، وألوان شماغات هدّبت للعيد والمناسبات، وعقال مخبأ من عيد قديم.

يستقبلون بعضهم ويتزاورون مُتسامحين عافين عن أي خلافات كانت قد حدثت بين عيد وعيد، أولئك الرجال لا يعيقهم بُعد المسافة بين صيدور وأرحامهم في الخارج، بل يستغلون العيد ليس لزيارةٍ فحسب وإنما يعني لهم الكثير من معاني التواصل، والمودة بحضن صادق يخلو من أي مجاملات.

عيد يرسم الفرحة على مُحيّا الكبير والصغير، الذي ربما ينام بجانب ما اشترته له أمه من ملابس لهذا اليوم، الذي يستعد فيه باكرا لصلاة العيد مع الكبار، ولجولة يجمع فيها ماله من نصيب من العيديات المصروفة من قبل الكثير من عائلات القرية، وفرصة للاستراحة من عمل الآباء من وظائفهم ومن كروم الزيتون، والابتعاد قليلا عن ضجيج المتاعب، وفترة نقاهة يزور فيها الطالب المغترب، والمغترب البعيد أهلة بعد غياب، وإن لم يكن طويلا.

مدرسة حطين وافتتاح شارع الستين...

تمضي الأيام حتما في صيدور كما تمضي على بير الذّهب، وتتجه نحو المستقبل المجهول، لكن الطموح والاجتهاد حاضران في كل المحافل.

ينتهي العام الدراسي من الصف التاسع، الحد الأخير للتدريس في مدرسة صيدور عام **١٩٩٧ ولا بُدّ من الانتقال إلى مدرسة حطين الثانوية في قرية قم.**

الانتقال إلى مدرسة حطين، بدأ مع افتتاح أكبر طريق دولي يمر بالمنطقة ليربط إربد بالأغوار الشمالية، عبر شركة مقاولات رافق أصوات آلياتها، أصوات المدير والمعلمين في الطابور الصباحي، وفي الفصول الدراسية.

كنا نُراقب وبنظرة هندسية، أَين وصل العمل في الطريق التي انتهت أعمال إنشائها **مع نهاية عام ١٩٩٨**، وتصبح العودة من إربد إلى صيدور، عبر طريق جديدة، تختصر المرور من وادي الغفر، وقرى سوم وزحر وحوفا وقميم، لكنها لا تعفي من ازدحام دوار البلدية في كفرأسد، والعبور من منطقة بير الذّهب.

ولنا في طريق العودة من مدرسة حطين إلى صيدور، الكثير من الحكايات؛ إذ تتطلب مسيرا طويلا لحين قدوم أي باص قد يُقلُنا إلى صيدور أو أقرب نقطة عليها، والتي كانت غالبا ما تكون بأحد باصات كفرأسد، إن كان يحمل ركابا إلى زاوية قريبة من منطقة بير الذّهب لنكمل باقي المسافة سيرا على الأقدام.

مدرسة حطين وأيامها قد لاتنسى، ففيها العديد من المواقف والكثير من الأصدقاء الذين رافَقْتُهم في رحلتيّ الدراسة والعودة من قم إلى صيدور أو كفرأسد، عبر طريق قم القديمة باتجاه مثلث كفرأسد.

في أحد الأيام الماطرة تلهف اثنان أشقاء من زملائي على حبات جواف، من شجرة تُلقي بنصف أغصانها المثقلة بالثمر المعطر خارج أسوار بيت بطوابق عالية، يبدو أنه بيت أحد أغنياء المنطقة، سارع الزملاء بقطف عدد من تلك الحبات الشهية، لكن ما لبثوا أن يلتفوا بظهورهم، إلا وصاحب الشجرة مستعد للمطاردة من خلال سيارته وحاصرني كأقرب هدف يستطيع من خلاله معرفة أسمائهم، فأخبرته أنني لا أعرف سوى الاسم الأول لهم؛ ليواصل مطاردتهم بحثا عن باقي الاسم بنفسه.

حال شجرة الجواف المندلعة للخارج، كحال الكثير من شجر الليمون والأسكدنيا في تلك الطرقات، لكن ليس الجميع يُلاحقك إن رآك تقطف حبة ترطب بها عروقك بعد ذلك المسير.

فترة الامتحانات النهائية وكالمعتاد، تتزامن مع جزء من فصل الصيف الذي يصعب فيه السير لمسافات بعيدة نظرا لارتفاع درجات الحرارة؛ لذا كان لا بُدّ من انتظار الباص، أو أي وسيلة نقل لفترات أطول.

حملت أيام مدرسة حطين في طياتها الكثير من الأحداث، كدورة في تدريب الجيش الشعبي، والتعرف بطلاب من باقي قرى لواء الوسطية كقميم وحوفا والخراج؛ حيث كنا نتخذ من أشجار الزيتون المحيطة بالمدرسة، مجالسا مفتوحة لكثير من الأمور، خاصة مع طلاب الصف الثاني الثانوي، فهم يحدثوننا بشغف عن رغباتهم في اختيار تخصصات جامعية مختلفة، منهم من يرغب بدراسة الهندسة ومنهم الطب والتمريض، وآخرٌ يخطط للانتساب إلى الجناح العسكري في جامعة مؤتة... كانت طموحاتهم تولد حافزا بالاجتهاد للوصول إلى طموح يشبه مايسعون إليه.

انقضت سنة أخرى من عمري الدراسي في مدرسة حطين الشامخة على حدود قرية قم، وعليَّ اختيار التخصص الأهم؛ لإكمال مسيرتي في التعليم الثانوي، حين كانت مدرسة "الزرنوجي" في كفريوبا توفر تخصصات علمية وعملية أكثر؛ ليقع اختياري على تخصص الكهرباء الذي فتح أمامي آفاقا كبيرة، ساعدتني على التقدم في كثير من المراحل.

العام الدراسي ١٩٩٩ – ٢٠٠٠

بدأت بدراسة التخصص وتطبيقه عمليا على يد الأستاذ فايز البشايره، وكان فيه الكثير من التجارب الشيقة والممتعة، إحداها تسببت لي بصعقة كهربائية بحضور أبي، حين كنت أودُ إطلاعه على كيفية صناعة جرس منزلي، لكن الأرض مبللة بالماء بعد شطفها من قبل أمي، ما ساعد التيار الكهربائي على السير بجسدي بشكل أسرع، لكنها لحظات قصيرة، كُتِبَ لي فيها النجاة بفضل سيطرة أبي على المفتاح الرئيس للكهرباء، فور شعوره بملامسة التيار لجسدي، طلب مني حينها عدم تكرار الموقف، لما دبه من رعب في صدره، والتركيز على المواد العلمية، فالأب يبقى حنونا ولا يستحق العيش في قلق على أبنائه مهما كان الأمر.

جمعتني مدرسة الزرنوجي بابن كفريوبا، وجمحا وبيت يافا ودير السعنة ودوقرة وجحين، وعدد من الطلاب القادمين من مركز المدينة إربد؛ لتوفر تخصص الكهرباء في هذه المدرسة، التي كانت تتزين بمزروعاتِ قسم الزراعة، الذي كنا نشتم فيه الكثير من روائح النباتات أثناء سقايتها في الصباح، من قبل الأساتذة المختصين، والطلاب الذين اختاروا التخصص، كأساس لمستقبلهم في الهندسة أو العلوم الزراعية.

كما تخرج من الزرنوجي زملاء لي من طلبة تخصصات النجارة والحدادة وميكانيكا السيارات والتدفئة المركزية، ومن باقي التخصصات العلمية العديدة، كالتجارة وعلوم الشريعة والأدبي والعلمي، وهو تخصص كانت مواده العلمية هي ذاتها، مواد امتحان الثانوية النهائي، للفرع الصناعي الذي اخترته.

***

دراسة التوجيهي وخرافات الكنوز...

الوصول إلى أي نقطة في العلم يحتاج إلى الجهد والاجتهاد بلا شك وبين أشجار البلوط والزيتون في صيدور، الكثير من الجلسات الصخرية التي شكلتها الطبيعة على مر العصور.

خرافات الكنوز الرومانية المدثورة في بقاع من أراضي القرية حديث يتردد بين الفينة والأخرى على مسامع الكثيرين، وتتلى حول ذلك قصص وخرافات كثيرة، جُلّها غامض؛ لعدم عثور أي أحد على كنوز فيها.

خلال مرحلة الدراسة تقلبت بين الكثير من الأماكن حسبما يروق لي وكانت فرصة الهواء العليل بين أشجار البلوط، هي الأقوى باختيار بعض الأماكن؛ لعلها تحفز الدماغ على الاستيعاب السريع لبعض المواد التي تحتاج إلى فهم وحفظ.

لقد كانت تولد الأفكار، وتمنح فرصا عديدة لشرح الدروس بحماس كبير، لا سيما أنه لا أحد هُنا يسمعني، وهو ما يمنحني فرصة لممارسة دور المعلم والطالب، والمحلل والناقد في آن واحد.

تهت بين المواد الدراسية، وبين ما سطرته الكثير من الصخور من علامات تثير الاستغراب من جهة، والفضول من جهة أخرى، بِتُّ أقرأ ما تحتويه الكتب، وأحلل ما تحمله تلك الصخور بين شقوقها وأربطه ببير الذّهب، وبما كنت أسمعه من رحالة البحث عن الذّهب الذين يسهبون برواية قصصهم في البحث عن الكنوز في حياتهم، وغالبا ما ينتهي حديثهم بأنهم لا زالوا فقراء.

مهما قرأت، مهما شرحت لنفسي من الدروس، لا بُدّ من أن تعيدني اللحظات إلى تكوين بير الذّهب، وإلى أشكال الخطوط العجوز على تلك الصخور، للتفكير بوجود كنز مزعوم وراء تلك الإشارات،

أتوقف مرارا وتكرارا أمام الكثير من العلامات والأجران المثيرة للحير .
كيف تكونت ؟ وهل للخبايا علاقة بذلك؟ هُنا لا بُدّ من المجنون المختبئ في صدري أن يخرج، ويرسم لي أشكالا مختلفة من الأساور والقطع الذّهبية البراقة التي تنتظرني خلف تلك العلامات، لقد اعتادت يدي على خوض التجارب في الصخور من قبل.

رُحت أبحث شيئا فشيئا عن أسرار عديدة تتلاطم معالمها ببعضها في محيط حارتي، أحدهم قال إن المُغرْ في صيدور لها " روزنة " أي منفذ لإدخال الضوء والهواء للمغارة، وهي العلامة المثيرة للجدل أمامي.

الروزنة موجودة، وتشير إلى عمق مظلم يرتطم بالقليل من خيوط الضوء المنبعثة من الشمس... إذا أنا أقترب من باب المغارة التي تنتظرني بها تماثيل بأوزان مختلفة من الذّهب، وكُلّما تخيلت أشكالها كُلّما تحمست وسارعت في البحث عن الباب، الذي ربما سيعفيني من انتظار أحلام كثيرة، جُلّها سراديب من جِرار ذّهب، لها أول بلا آخر كما تقول الكثير من الخرافات.

مع تصافق ورقات كتاب الجغرافيا، وتساقط أوراق الشجر عثرت على صخرة بشكل دائري، كانت سهلة الاقتلاع؛ لتكون دليل ذلك الباب الذي مجرد أن رأيته بدأت دقات قلبي بالتسارع، والهمة والعزيمة تشتد ظنا من اقترابي من الكنز، الذي ينتظرني منذ مئات السنين.

بـدأت أهـبش مـن التـراب الأحمـر الرطـب مـا أسـتطيع، وألقـي بـه خارجـا حـتى أتوسـع في الداخـل، وأكـون قـادرا عـلى الاقـتـراب مـن أي دليـل... كُلَّـما سحبت مـن ذلك التـراب النـاعم، كُلَّـما زادت الأدلة على الغنـاء والعـز القريـب، فمـا هي إلا حجـارة صـغيرة ورمـال تفتـت بفعـل الـزمن لا نعـلم لأي حقبــة تعــود، منشـورة بالقــاع بــكل ســلام وأمــان، قضّــت ضربات فـؤوسي الناعمـة مضـاجعها؛ لتصـرخ قـائلة: كنـا بحقبـة أناس فقـراء مـثلك لا تتعـب نفســك، وكانـت جميـع الأدلة تبــرهن ذلك، وعـلى مـا يبـدو أنـني بمسكن؛ لفقير مر من هُنا بعهد الرومان ممن عاشوا في المنطقة.

سمعـتم بمـن قـالوا ربحنـا كـذا وكـذا في كـيس الشـيبس؟ أنا ربحـت كـيس الشـيبس بـأكمله عنـدما عثـرت عليـه في تـلك المغـارة، والذي كان دلــيلا عـلى دخولهـا مـن قِبَـلِ غيـري سـابقا، وتسـرب ميـاه الأمطـار إليهـا آلاف المـرات مع السـنين، لكـن كيسـي كان يحمـل إشـارة بالانسـحاب والعـودة لدراســتي، فلــو كانــت بَــوَاطِن الأرض حُــبلى بالكنــوز، لــن ينالهــا إلا صاحب النصيب المقدر له من ربّ العباد.

وهُنـا... انتهـت الكثيـر مـن الخرافـات الـتي كنـت أسمعهـا، وبِـتُّ مقتنعـا بـأن ليس كل ما نسمعه حقيقية.

استيقظت من أحلام الكنوز والذهب، وأسرار كل العلامات التي حاولت تأويلها عن صخور حارتي، وعن تسمية بير الذّهب وصمتها

تلك البئر القديمة التي لا تفسير لأي لغز يتعلق بها إلى الآن تقع على الخط الجنوبي الرابط بين قريتي صيدور وكفرأسد.

وبئر أمي بئر حية تواصل السقاية في جزيءٍ صغير من حارتي التي اتسعت بيوتها وازداد سكانها، أما بير الذّهب ما زالت في سباتها العميق، تُخفي في أعماقها أسرارا لاطمت عهودا وفصولا من الحكايات والأساطير، فلا ماء فيها يُشرب ولا سبائك تبرق.

الاسم ذهبي، والروايات أحلام مرعبة وكوابيس لمن مر بها ليلا لاعتقاده أن غولا تسكنها أو حولها، فيما ظنها الناس مستودعا للذّهب في عهد الرومان، إلّا أنه لا أدلة رسمية تثبت ذلك، وبقيّتْ بهذا الاسم برغم عدم شهرتها أمام أبناء الجيل الحديث، وما زالت المخرج الوحيد لقرية صيدور، باتجاه قرية كفرأسد ومدينة إربد، إلى لحظة تأليف هذه الرواية.

أعـود لمتابعـة دراســتي في المدرســة، وبعـدها اجتهـاد ودروس تقويـة مـع أسـاتذة في الفـيزياء والرياضـيات والإنجليـزي؛ لألحـق بـكل مـا فـاتني في مغارة الأحلام والكنوز.

وهي مـواد لاطمـت مـوهبتي بالخـط العـربي، الـتي كنـت أشـعر بـأنني أهملهـا لحـد كبـير، رغم هـوسي بهـا وبفنونهـا منـذ الصـغر، علـما أن أبي كان يـرى بكتـاباتي الخـط الجميـل، الأمـر الذي دفعـه ومنـذ طفـولتي للاهـتمام بهـا وإعطـائي الدفـاتر والألـوان والأقـلام، تنميـة منـه لمـوهبتي الـتي ورثهـا عـن محبته لها.

مع نهايـة الدقيقـة الأخـيرة مـن امتحـان الفـيزياء الصـعب، أعلنـت دخـول آخر عطلة صيفية من مدارس التربية والتعليم، وعليَّ انتظار النتائج

ذلك الوقـت جـاء فرصـة ليجعـل مـن هوايـة الخـط العـربي وردة تكبـر كلّـما سـقيتها، وتأخـذ منحـنى لطيفـا في بارق أيامي، وأصـبحتْ تزدهـر إلى أن تحولـت مـن الـورق الرقيـق إلى الجـدران، وأبـواب المحالّ التجاريـة، ومنهـا إلى اللوحـات الإعلانيـة الحديثـة، الـتي باتـت تُـزين الأسـواق والشـوارع في بدايات الألفيّات.

بدأت التجول في الأسواق أراقب اللوحات، أعجب بشيء كثير منها وأنبهر عند أخرى، أرافق أبي في كثير من الأحيان؛ لمساعدته في عمله على سيارة شحن، وغالبا كانت الجولة من صيدور إلى كسارات ناطفة أو سموع، ومنها إلى قرية وقاص أو المشارع في الأغوار الشمالية.

كان دائما ما يقول لي بابتسامة لطيفة: اللوحات أصبحت هاجسا لك وكنت أذكر له أسماء اللوحات، واسم الخطاط الذي نفذّها لأنه مكتوب عليها، وهو ما شجعني أكثر وحفزني على أن يكون اسمي بين تلك الأسماء ذات يوم.

الموهبة مثلها مثل الأفكار تتطور شيئا فشيئا، إلى أن أصبحتُ مهووسا بالخط والكتابة وشيئا من الرسم، لكن دون أن أتناسى أني طالب وأنتظر نتيجة ستحدد مصيرا هاما بحياتي، فبدأ الوقت ينقسم بين مرافقة أبي في وقت فراغي، وبين اللوحات وتنفيذها.

كنت أرى من نفسي اسما يلمع في هذا المجال ويجب أن أكون قويا بحكم صغر سني، وبحكم ازدحام السوق بالخطاطين، وصانعي اللوحات الإعلانية الأقدم مني، والأكبر مني سنا وخبرة ودراية في أسرار المهنة وخفايا السوق.

إن الأرض واسعة، والاتكال والرزق على الله، ويجب أن أخطو بكُلّ استطاعتي نحو الشيء الذي أُحب، الجد والاجتهاد مطلوبان ووالدي بانتظار معدل النجاح، وكان اجتهادي على أمل أن أحقق شيئًا يفتح طريقًا أوسع لمستقبلي ويسعدهُم وإن كان يسيرا؛ لأن الفرحة فرحة مهما كان حجمها.

نتائج الثانوية العامة في بلدي تصدر وكما اعتدنا عليها لسنوات طويلة صباح يوم الجُمعة، تلك الجُمعة سبقها خميسٌ حافل بالتوتر والتوقعات، والكثير من الأصوات في محيطي المقرب، تقول كيف سينجح ولماذا؟ وكأن النجاح حصرا لأشخاص دون أشخاص.

سمعت كلمات كدت لا أصدقها، لكنني أمعنت بسماعها لأتأكد أنها وُجِهَت لي بالفعل ... النجاح بالنسبة لي نِتاج جهد وسهر ومثابرة وليس حظا يمنحه الآخرون لمن أرادوا ومنعوه عن مَن أرادوا.

انتظار النتائج بصخب ما أستمع إليه أعادني إلى جميع أوراق الأسئلة والبحث عن الإجابات في الكتب، ومقارنات واسعة بين ما وضعته في دفتر الإجابات، وما بين طيات الكتب.

توقفت كثيرا عند مادة الفيزياء، لكني أرتجف أكثر من نتيجة الرياضيات، فإجاباتها غير متوفرة في الكتاب وإنما أمثلة عليها، أغلق الكتب وأعاود ممارسة يومي بشكل طبيعي، تعود الأصوات للمرور بمسمعي وتكرر أن النجاح لفلان وفلان، دون أن أسمع اسمي بين تلك القوائم الوهمية التي تصدر عن أشخاص لا علم لهم بما دار بيننا وبين الأسئلة من عِراك في قاعة الامتحانات... كُلّما سمعت بتلك التوقعات أعود إلى نفس الأوراق ونفس الكتب، أعيد محاولة استرجاع ما وضعته في دفتر الوزارة من إجابات، فكانت تطمئنني بدرجة تقربني من الشعور بالنجاح.

بالرغم مما سمعته لم أصل إلى مرحلة اليأس، بل غلبني النُعاس ووجب النوم مع اتخاذ قرار يمنعني من الذهاب إلى شبابيك النتائج في صباح الجُمعة، الذي غالبا ما يخلو من المواصلات من صيدور لمدرسة الزرنوجي، مُقنعا نفسي أنني إن لم أكن بين صفوف الناجحين سيكون اسمي متداول بشراسة بينهم، فهم يتوقعون لي الإخفاق والنجاح بنظرهم سيكون لمن هم أقل مني نشاطا بالدراسة.

الكثيـر مـن الكلـمات سمعتهـا قبـل إعـلان النتـائج، لكـن لا أعـلم لمـاذا كانـت تعيــدني إلى بــئر أمي، الــتي جعلــوا منهــا بابا للســخرية عــلى جهــدي وإصراري، حينهـا بـزغ الأمـل أن أكـون بـين قـوائم النـاجحين، فـالكثيرون توقعــوا أن لا يــتم مــشروع البئــر وبإرادة الله ومثـابرتي قــد تم، واليــوم موعـد إعـلان النتـائج الـتي بـذلت لأجلهـا جهـدا يسـاوي مـا بذلتـه مـن أجـل البئر التي أُنشأت بالرغم مما سمعته.

بقيـت مُصـرا عـلى أنـني لـو كنـت مخفقـا سـينادي الجميـع، وإن كنـت ناجحـا سـيبلغني المحبـون وإن جـاءوا عـلى صحـن طـائر، ومـا هـي إلا سـاعات قليـلة وإذا بي النـاجح الوحيـد، الذي يـدوي اسمـه بالمحـيط الذي حـاول الأمـس إلقائي أرضا محبطا ومنهكا.

حققـت النجـاح دون جميـع مـن ذكـروا بـالأمس أنهـم مـن يسـتحقونه وأنهـم أهـل لـه، فكانـت النتيجـة جيـدة وكل شيء نسـيته بابتسـامة أمي وأبي وهم يخبرانـني أن جميـع العائـدين مـن زحـام تـلك الشـبابيك، يؤكـدون نجـاحي وعـليَّ التقـدم بطلـب التنسـيق الموحـد للجامعـات والكليـات الأردنيـة، أو التقـدم بطلـب توظيـف لمحطـة الحسـين الحراريـة؛ للإنتـاج الكهـربائي في مدينـة الزرقـاء، فهـي متاحـة لمـن كانـت نتيجتـه في الثانويـة ناجحا، وبمعدل يعادل ما حققته.

أما التخصصات المتاحة أمامي في المرحلة الجامعية، هي تخصصات في قطاع الكهرباء، لكنها ذات تكاليف عالية جدا، وأبي على استعداد تام وأنا من سيقرر في النهاية.

كان الخيار الأقوى إما أن أُحمل أبي فوق طاقته وأتابع دراستي على حساب الكثير من المتاعب له وإما أن أكون مُعيناً له، فقررت الانتساب لجهاز الأمن العام؛ حيث فرحت كثيرا عندما قرأت إعلانا يطلبون فيه تخصص الكهرباء.

سارعت إلى العبدلي؛ حيث مكان التسجيل والقبول، ومنها إلى ماركا الشمالية لإجراء فحص طبي أولي، وكان يوما حافلا بالكثير من الأحداث التي انتهت في تمام الثانية عشرة ظهرا، مع سائق تكسي يستمع لأغنية عاللي جرى لأصالة نصري وصابر الرباعي، التي عَلُقت في ذهني برفقة العديد من معالم الجميلة عَمّان، كقطار خط الحجار المتروك هناك على أحد جسوره قرب منطقة ماركا، ومجمع بنك الإسكان القريب من وزارة الداخلية، التي تدلت على أطرافه عروق نباتات زينة خضراء.

عـذرا عمـان... أنـت جميلـة لكـن مقـري صـيدور، و أنـتِ تخلـين تمامـا مـن رائحـة الزعـتر وشـاي الميرميـة، وسندويشـــاتك بســـعر ثلاثـــة أضعاف عن إربد، وشوارعك مزدحمة.

فـور وصـولي مجمع عَمّـان جنوب إربـد، تناولـت كوبا مـن عصير الليمـون مـن إحـدى العـربات واتجهـت إلى مجمع الأغـوار القـديم ومنـه إلى صـيدور، وبعـد أقـل مـن مئتي مـتر لعـلى بعد بيـر الذّهـب، طلبت مـن سـائق البـاص أن يتوقف لأنزل في منطقة حقل العمود.

وهي منطقـة تَغُـل صـيفا بـين شجيراتهـا مـن الزيتـون بالكثـير مـن عـروق السـناريا الـتي أحـب... تناولـت شـيئا منهـا وتابعـت مسـيري إلى أول دكان في صـيدور لتنـاول زجاجـة باردة مـن الميرنـدا، أضعـت حينهـا حقيبـة أوراقي وأوراق أبي وقضـينا فـترة أسـبوع في البحـث عنهـا، لكـن تتبـع الأحـداث أوصلني إلى العثور عليها بجوار علب التونة في ذلك الدكان.

كانـت الفرصـة دراسـة الاتصـالات عـلى حسـاب الأمـن العـام، والالتحـاق بصـفوف الأجهـزة الأمنيـة، لكـن عـليَّ الانتظـار لحـين طلـبي لإجـراء المقـابلة النهائيـة، الـتي أُعلـن فيهـا إخفـاقي بالشـروط الطبيـة الـتي أظهـرت وجـود التبسط في قدمّي.

عـدت إلى صـيدور لا أحمـل سـوى مشـاهد جديـدة التقطتهـا عيـنّي مـن شـوارع عـمان وإربـد، وشريـط كاسـيت للمطـرب إلهـام المـدفعي يقـول فيـه: " مالي شغل بالسوق مريت أشوفك "

اسـتوقفني عثـوري عـلى الأوراق بجانـب علـب التونـة، فقلـت: لـو أنـني عثرت عليها بجانب سلة للورود؛ لكانت إشارة عابقة بالعطر.

قـررت حينهـا خـوض التجربـة الحقيقيـة في الخـط واللوحـات الإعلانيـة؛ لتكـون البدايـة مـن مراقبـة الأسـتاذ نضـال عـز الديـن وهـو يَخُـط اللوحـات عـلى محـال في كفرأسـد، وجـولات صـباحية عـلى أصحـاب المحـالّ التجاريـة في مجمع الأغوار والمدينة الصناعية ووسط مدينة إربد.

أتـردد إلـيهم بـين الفينـة والأخـرى لأعـرض علـيهم مـا أسـتطيع تنفيـذه إلى أن بات الأمـر يلقـى رواجـا ممزوجـا برضـا وثقـة مـن العميـل، كان العمـل بـكل يسـر وبدخل يسير.

الكثير من الأيام تنتظرني، أحاول فيها الاعتماد على نفسي، مهما عملت وتنقلت ما زلت أحصل على دخل قليل لا يكفي، إلا أنه كان يصادفني في بعض الأيام الشيء الجيد... وقفت أمام قرارات كبيرة تستدعي البحث عن مصدر دخل أوسع، دينار اليوم ودينار الأمس لم تعد كافية، وتنقلي بين البيت والسوق ليس بالمجان، كُلّها إحداثيات تحتاج لمصاريف ربما لن أحصل عليها مع تقلبات السوق، اليوم نعمل وغدا عطلة وبعدها لم يطلب مني أي أحد شيئا أتقاضى عليه أي دنانير.

ربع ساعة بين الوظيفة والاستقالة ...

مع مطلع عام ٢٠٠١، ضج بين الناس في القرى صيت مخبز البيادر بالقرب من مجمع الأغوار القديم ... مخبز متطور ويعرض خبزه وكعكه في مساحات كبيرة، قررت البحث عن فرصة عمل في ذلك المخبز الذي ما لبثت أن أصل إليه، إلا وأعداد كبيرة من الشبان يبحثون عن عمل، جُلّهم من أنهى تعليمه الجامعي وأراد أن يقضي أوقاته بعمل يدر عليه الدخل ولو بالشيء القليل.

عرضوني حينها للمقابلة عند رجل سمين مختص باختيار عمال تقطيع العجين وتصغيرها، وإذا به يقول: نحن هُنا لا نتوقف قلت له: لم أفهم كلامك، فقال: يعني لا مجال للتلكع هُنا " الشغل شغل " قلت له: وأنا لا أحب التلكع، قال إذا عليك إحضار أربعة أكياس من الطحين من الطابق الثاني إلى هُنا، ويقصد بهُنا "التسوية" (المكان المخصص للعجن والخَبز) تناولت أول كيس وأوصلته إليه وإذا به يصرخ أين الكيس الثاني؟ وكأنه يريد فرض السيطرة على جميع من انضموا لفريق العمل ويرهبهم بصوته؛ ليبقي هو الأسد في تلك الغابة المتوهجة بلهب الفرن.

مسحت ما تزرب من عرق على جبيني وغادرت المكان، عدت لتناول رغيف خبز مما خبزته أمي في ذلك الصباح، ووضعَته في اطباقة مُغطاة بقماشة بيضاء خوفا من أن يَجْفُر، ودخلت بقيلولة أنستني العرق ودرج الطابق الثاني من المخبز، ونصف دينار كانت قد سقطت مني وأضعتها.

بعد القيلولة التي استمرت لما بعد عصر ذلك اليوم ...

تناولت طبقا من الشمندورة (اللبأ) أعدته أمي من حليب بقرة كانت قد أنجبت عجلا في الأمس، وذهبتُ لزيارة صديقي إسماعيل العيسى في بيتهم.

كانت الجلسة برعاية مسجل جديد اشتراه اسماعيل قبل أيام من إربد بإضاءة ملونة تزاد حدتها كلما ارتفع الصوت... بدأنا نستمع لما هو جديد وقديم.

ومع كوب من الشاي بسكر زيادة بحسب رغبة إسماعيل، سردت له ما حدث معي بالوظيفة التي سرعان ما أعادتني إلى صفوف البطالة بين شباب قريتي، وأخبرني إسماعيل آنذاك، أنه قرر افتتاح بقالة صغيرة في جزء من بيتهم.

عدت إلى بيتي ليلا، وإذا بجارنا أبي العبد يناديني؛ ليخبرني أنه يستعد لسقف بيته الجديد، الذي حفر إسماعيل العيسى أساساته قبل أن يصاب بمرض بالعظام، ويريد مني تأسيس شبكة كهربائية بالسقف.

اتفقت مع أبي العبد على الحساب والموعد، وأعطاني يومية لم أكن أتوقعها، لقد كانت عشرين دينارا احتفظت بها إلى يوم أسود كما يقولون، التفت لي المعماري القائم على بناء بيت أبي العبد وقال لي: هل تريد أن تعمل؟ قلت له: بالطبع، قال لي: إن صديقا له معه قلاب برتقالي يحتاج إلى عمال لتحميل الطوب وتنزيله.

سارعت إلى تلك الفرصه التي كانت عبارة عن دورة في اللياقة البدنية تجلب لي كل يوم أربعة دنانير، نظير تحميل القلاب بالطوب من معمل أبو بسام البشايره في وقاص، وإفراغها في صيدور أو كفرأسد.

عملت لفترة قصيرة بتحميل الطوب من وقاص وتنزيلها في قرى لواء الوسطية، وكنت أنتظر سائق القلاب عند إشارة كفرأسد؛ لحين قدومه من الكسارات محملا بالرمل لذات المعمل، لكن لم تستمر طويلا بسبب انسحاب سائق القلاب من العمل لبعد المسافة التي قال إنها تحتاج إلى سيارة أحدث من التي يملكها.

تلطخت يداي بأحبار تخطيط اليافطات وتشققات بباطن اليد هرفتها حواف الطوب والربس، لكنها لم تسجل إصابة عمل بل سُجلت في دفاتر الاعتماد على النفس ... اللوحات الإعلانية ليست كُلّ يوم ولا تحميل الطوب وتنزيله، وليس كل الزبائن تشبه أبو العبد، عليّ أن أتجه إلى شيء أكثر أمانا مما أنا به الآن والبحث عن وظيفة ثابتة، فهي ملاذ آمن من تقلبات السوق ومواسم تجديد اللوحات، أو افتتاح محال جديدة.

القرار حتما سيأتي ويتطلب مني أن أكون متعجلا لإنقاذ نفسي بما أستطيع من جور الظروف المادية، حسنا... سأحاول الانتساب للأجهزة الأمنية مرة أخرى أو القوات المسلحة، والتي كانت أسرع فرصة أمامي قد وفرتها الحكومة بمكرمات ملكية؛ للتخفيف على المواطنين من أعباء الحياة وللحد من نسبة بطالة الشباب أيضا.

من حياتي المدينة إلى العسكرية...

الثلاثاء / العاشر من تموز لعام ٢٠٠١

التاسعة صباحا، وفي مدينة الزرقاء تتم الموافقة على انضمامي إلى صفوف الجنود الأغرار في القوات المسلحة؛ لأعلن بداية حياتي العسكرية، وهو اليوم الأول الذي أنام فيه خارج مدينتي إربد.

بدأت حياتي العسكرية بمشهد كنت أرى فيه نفسي لأول مرة دون شعر على رأسي... لا شك أنها موعد للخبطة كُلّ شيئ داخلي، فهي مرحلة الانتقال إلى حياة عسكرية طويلة، بدأت من رحلة من صيدور إلى الزرقاء، تعرفت فيها على ابن العقبة وابن الرمثا يرقا.

بدأت بحفظ القواعد العسكرية، والضبط والربط والأنظمة المتبعة في السلك العسكري، والتعرف على مناطق كثيرة في الأردن في آن واحد، لكن العسكرية ورغم جديتها لا بُدّ أن تُلقي بي في تخصص يصبح هو وظيفتي الرسمية بين صفوف العسكرِيّين في الجيش العربي.

لم تثنني حياتي العسكرية عن مواصلة محبتي للخط العربي، وتنفيذ اللوحات الإعلانية، فكانتا واجبا عليَّ، أحدهما هواية والآخر انتماء وكلتاهما توفران لي الدخل.

ستة شهور وتنتهي مرحلة التدريب الأساسية، ووجب وضع أرجلي في خطوتي الأولى بعدها لتعلن قوائم التصنيفات في الرابع عشر من كانون الأول لعام **٢٠٠١**، انتقائي كتلميذ عسكري في "**موسيقات القوات المسلحة الأردنية**" في عَمّان، وهي المرة الأولى التي أزور فيها طربور في حياتي، جوها جميل في الصيف وقارص بردها في الشتاء.

أصوات قرع الطبل ومزمار القربة في كل صباح نستمع إليها نحن وسكان المنطقة في آن واحد، ضمن مرحلة عملية جديدة تعج بالمحاضرات النظرية والنوتات الموسيقية التي أدخلتني وزملائي في عالم فيه العلم بحور كما يقولون.

أصبحت الدو والري دياز والمي بيمول دندنة جديدة في حياتي، لكن الريشة والقلم لهما نصيبهما من الوقت، تارة أدرس النوتات وأخرى أكتب فيها اللوحات وأرسم الشعارات.

اختيار الآلة الموسيقية من بين أكثر من خمسين آلة يعود إلى عدة متطلبات أهمها صحة الأسنان والطول والقامه، فوقع الإختيار على آلة الساكسفون لتصبح الرفيق الحميم ومهنتي الرئيسة في العسكرية.

عـــازف ساكســـفون في موســـيقات القـــوات المســـلحة الأردنيـــة، هُنـــا الحفـلات والمناسـبات الوطنيـة، هُنـا التجـول في كافـة منـاطق ومحافظـات المملكـة الأردنيـة الهاشميـة، هُنـا جامعـة مؤتـة وهُنـاك كليـة الأمـيرة منى للتمريض.

الطـابورُ عسـكري بحـت والمعزوفـات مارشـات عالميـة ومحليـة ولا يمنع هـذا أي أحـد منـا أن يتجـه نحـو الأوبـرات العالميـة، أو أغـاني أم كلثـوم وعبـد الحليم كلما أراد أن يبدع ويتغنى.

دراسـة النوتـة الموسـيقية وقراءتهـا والتـدريب عـلى آلة الساكسـفون يمتـد لمـدة عـامين، قبـل الـزّج ببقيـة الفـرق الموسـيقية الفعـالة بشـكل رسمـي، في مـرحلة كُلّها واجبات دراسية واختبارات وواجبات عسكرية في آن واحد.

بوابة إسمنتية وإنقاذ حياتي...

شاحنة كبيرة تأتي من الخارج وعليَّ أنا ومجموعة من الجنود تحميلها بالأثاث، والذهاب بها إلى مكان ما لتفريغ ما حمّلناه بها، تولد حينها فضل كبير لأحد الرفاق بعد الله بإنقاذ حياتي، عندما كنا نعتلي الشاحنة واقتربت من بوابة إسمنتية عند الخروج كادت تجرف رأسي من مكانها بمرور الشاحنة من تلك النقطة دون أن أنتبه، لولا أن هذا الجندي واسمه مُحمَّد عبيد الله الحمايده من محافظة مأدبا انتبه لي وتناولني بيده ليبعدني عما كان قد يحدث لي.

يمضي ما يقرب من الأربع سنوات في السلك العسكري، تنوعت ما بين طوابير عسكرية عديدة، فيها الكثير من المعرفة في العلوم العسكرية والموسيقية، وما بين المشاركة بالمراسم الملكية والمناسبات الوطنية وتخريج أفواج الجناح العسكري في العديد من الكليات العسكرية، وتخريج أفواج من الجامعات المدنية الحكومية والخاصة، إذ تعتبر موسيقات القوات المسلحة الأردنية جزءا لا يتجزأ من تراث البلد، لا سيما أن غالبية المعزوفات هي ألحان وطنية ذات وقع كبير في نفوس الجميع.

الإجازة من طبربور إلى إربد شيقة، فهي تمر بي من إشارة طارق باتجاه مجمع العبدلي أو دوار المدينة الرياضية ومنها إلى صويلح، وأصبحت ذات الرحلة أسهل حينما أصبحت من طبربور إلى مجمع الشمال ومنه إلى إربد، والأجمل من كل ذلك هي المسافة من إربد إلى صيدور وإن كانت مرة في الأسبوع، خصوصا في فصل الربيع الذي تزدهر به جوانب طريق إربد عمان بما يشبه ما تزدهر به تلال صيدور وريضانها.

الرحلة من إربد إلى عَمّان ومن إربد إلى صيدور، تختلف تماما عما في السابق، طرق جديدة وواسعة ومتابعة من قبل الدوريات وشرطة السير، والركاب كُلّ ينشغل في هاتفه الذي فرضته عليه التطورات التكنولوجية، لم نعد نستمع لراديو الباص ولا نشاهد راكبا يقرأ الجريدة ولا قصص يتلوها الركاب فيما بينهم.

جمعات العائلة في تلك الإجازة لا مثيل لها، ربما الغياب لبضعة أيام عن الأهل يحفز هرمونا رقيقا في دواخلنا، يجعل من اللحظات القصيرة شيئا نتمنى ألا ينتهي، لكن في مغبة الأيام أشياء بلا موعد وكذلك مفاجآت بلا موعد، منها ما يُسعد ومنها ما يصدم ومنها ما يسبب نكبة نفسية طويلة الأجل، ومنها القصيرة كذلك.

ليلة خميس.. طرز بها نور الحبس..

ثمانية وأربعون يوما / قضبان زنزانة / قيل وقال

الخميس... التاسع عشر / حزيران / ٢٠٠٥، موعد زفاف صديق مقرب لي ولا نصيب لي من الحضور برغم متانة علاقتي به.

اليوم بدأ هادئا نوعا ما، لكن هُناك رسائل شتم وقدح تصلني عبر الهاتف لا أعلم مصدرها، لكنها من رقم أستطيع قراءته، فهو رقم يتبع إحدى شركات الاتصالات لدينا، كانت رسائل مثيرة لكثير من مشاعر الغضب، وجب فيها التصدي لتلك الكلمات البذيئة خاصة أن هاتفي تُرِكَ مُغلقا طوال الأسبوع لغيابي لظروف صحية ألمت بي، فنحن في مجتمع يرفض الشتيمة رفضا قاطعا ولا يقبلها تحت أي ظرف كان والرسائل تحمل كلمات لا تسامح فيها ولا تهاون، وهُناك طرق عدة للبحث عن مصدرها بالقانون، أو عن طريق شركات الاتصالات.

تسرعت قليلا عندما حدثت بها أحد الأشخاص، والذي تفاجئ بأن الرقم ذاته يحمل اسم أحد من أصدقائه في هاتفه، اتصل به وأخبره بأننا سنزوره برغم بعد مكان سكنه؛ حيث كان يعمل حارس مزرعة في منطقة الدجنية طريق المفرق الزرقاء.

أصررت على سماع أسباب تلك الرسائل من الشخص الذي وصلت إليه ورفضت دخول بيته... لقد اكتفيت بمقابلته على مقربة من المزرعة بلقاء كُلّه صفاء وهدوء، والمقصود منه بكل وضوح معرفة أسباب تلك الشتيمة التي وصلتني، وإذا به يقول: أنا لا أعرفك ولا أعرف هذا الرقم، صحيح أن الرسائل من رقم هاتفي وأنا بطبيعتي لا أعتذر من أحد حتى وإن كنت مخطئا، فافعل ما تراه مناسبا.

توقفت قليلا وشعرت أنه قادر على إسناد أي تهمة لي؛ لذا كنت على حق برفضي دخول بيته ووجب علينا المغادرة، لقد كان الوصول إلى عنواني أمرا سهلا، فالرجل يحمل الرسائل المرسلة من هاتفه لرقم هاتفي الذي احتفظ به، وسهل ذلك الطريق أمامه لأقرب مركز أمني؛ لتقديم شكوى بحقي، وسهل أيضا وصول رجال الأمن لاسمي وعنواني.

عند استدعائي من قبل ضباط مركز أمن بني عبيد في منطقة الحصن لم أتردد؛ لأنني أملك دليلا واضحا بالرسائل التي جاءت من رقم ذلك الشخص، وظننت أن الرسائل قد تعفيني وينتهي الأمر بإخلاء السبيل.

لكن ما إن أبرزت دليلي الوحيد تم مسحه بطريقة خارجة عن سيطرتي لأجد نفسي في زنزانة دون تحقيق، ودون أن تُلقى على مسمعي أي نوع من أنواع القضايا أو التهم، ظننت أنه تطبيق للقانون بحق أي مُشتكى عليه على ذمة التحقيق.

حينها بِتُّ كفتى يحلم بكابوس عنيف يريد الاستيقاظ منه، لكنه يأبى إلّا أن يكون حقيقة أعيش فيها ظروفا غريبة وطقوسا غريبة المعالم كذلك.... تمنيت أن أصحو منها بأسرع وقت، لكنها رَفضت.

إن السجن كبير ويتسع لآلاف القضايا ومئات من المتهمين بالجرم المشهود، والبريئين الذين خالفتهم الأدلة على براءتهم.

تبدأ الرحلة في زنزانة أحتاج فيها إلى تفسير كلّ شيء يحيط بي، أستمع فيها لكُلّ من حاول إثبات براءته أمامي دون أن أطلب منه ذلك، لكنه وجد من سجين مستجد مثلي مهربا من واقع أمره.

مررت بكثير من غمضات العين عند الاستماع لذلك السرد المستمر، أستمع لوهلة قصيرة ثم أعاود النظر في قضيتي التي لم تنسب لي بعد.

تساؤلات كثيرة حول سبب وجودي هُنا، لكن المعلم الوحيد الواضح أمامي هو أن ذلك الحارس قدم شكوى عقب لقائي القصير به على الرغم من استئذان صديقي منه وقبوله بذلك اللقاء لبضع دقائق، لا أعلم إلى أين ستذهب بي الحياة بعدها.

مرت بي الكثير من اللحظات على بيت ذلك الحارس، فبه سيارة قديمة تحمل لوحات أرقام غير أردنية، وبجانبها الكثير من معرشات العنب وكمية من الخردوات، توقعت أنه جمعها من الشوارع أو من مكبات النفايات، أتذكر لهجته الغريبة عن لهجتنا لكنني عرفت من خلالها جنسيته، أعود وأتساءل لماذا شتمني برسائله ولماذا أنا هُنا؟

الإجابة المثيرة للاستغراب في نفسي، كانت أنني عندما قررت السؤال عن إساءة مجهول لي، أصبحت أنا المخطئ الظالم المسيء دون علم مني بذلك، كيف أسجن بلمحة مشوار إلى الدجنية؟ وكيف اتهَّمُ بالكثير من الأمور دون دراية أو حسبان؟

أعـاود الاسـتماع لمـن يسـرد قصـة قضـيته، وكيـف أودت بـه إلى هـذه الزنزانـة؟ أجـد فيـه الكثـير مـن الملامـح المتقلبـة بـين الابتسـامة الحزينـة والشـوق لأهله والندم على ما اقترفته يداه من ذنب جمعني به هُنا، وبين شحوب الوجه وحرقة العين ورمشة النعاس.

أعتـذر منـه، وأقـول له: أنـت صـاحب قضـية واضحـة، وكان حكمـك فيهـا هـذه الزنزانـة، لكـن أنا حاولـت معرفـة أسـباب شيء مـس حقـي الشخصـي فأصـبحت زمـيلا لك دون أي ترتيـب مسـبق ودون نيـة للوصول إلى هُنا، ماذا علي أن أفعل؟

وإذا بـه يسـرد الكثـير مـن بنـود في القـانون، تفاجـأت أنـه قـد اكتسـب معرفتهـا بـين قضـبان الـزنازين وشـباك سـاحة التـنفس، وقلـيلا احـتفظ بـه مـن زيارة محاميـه إليـه في أحـد الأيام، كُلّهـا بنـود لم يمـر بهـا عـلى سـبب سجـني ولا اسم تهمـتي ولا عنـوان قضـيتي، ولا حـتى اسم القـاضي الذي أنتظر ولا الحكم النهائي.

لم يخبرني كيف يتعامل القانون مع المتهم الأبله الذي يشبهني، ويقبع هُنا لمجرد سؤال عن سبب شتمه، فقلت له: يبدو أنك تفهم بالقانون، فقال لي: هُنا يجتمع المئات من الناس مع المئات من القضايا، ربما سينادى اسمك قريبا ليخبروك بسبب تواجدك بيننا، فابتسمت لمجرد سماع ذلك، وشعرت أن الفرج قريب على الرغم من عدم توجيه أي تهمة لي أو أي سؤال، كل ما سمعته في البداية تفضل معنا لأجد أن السجن يرحب بي بين صفوف المتهمين والمحكومين.

إن السجن لا يرحب بأحد دون ذنب دون قضية دون جريمة، هذه تسمية السجون في كل المجتمعات التي ما إن سمعت بدخولك هذا المكان، تبدأ حولك تلاوات ما أنزل الله بها من سلطان، أنت المتهم نفسك لم تخطر على بالك، فخارج السجن العزيز والمضطرب قلقا على مصيرك والمشتاق لك، والمحلل والخبير بالقانون والصحفي المتخفي الذي يختم تأويلاته وتلاواته لقصتك بقولِ لا تخبر أحدا أنني أخبرتك لأنه يعلم أنه يسهب بسرد مواضيع لا حقيقة لها، وإنما اقتبسها من تحليلات لا ضمير فيها يتصل ولا لسان نميمة ينفصل.

الأمر ليس مهما لمن يقبع في الداخل لأنه يعلم شيئا وينتظر شيئا، يعلم كيف وصل إلى هُنا أكثر من أي شخص آخر، وينتظر حكمه ليبدأ بطرح المجموع من الأيام التي قضاها ليحصل على نتيجة تساوي موعد خلاصة من القضبان والزنزانة وشبك الزيارة وساحة التنفس، وهم المهمومين وقصص العشاق ولوعة المشتاق ومنتظري يوم الإفراج، وهو موعد ينتظره السجين بفارغ صبره، متمنيا أن يغمض عينيه اليوم ويستيقظ عنده للخروج.

هكذا شعور أي سجين مهما كان ذنبه، فقد قضى ليالي تعلم فيها الكثير من الصبر والتوبة عن الكثير من الأفعال، ولربما يخرج من هُنا إنسان لا يحمل أي صفات من تلك التي دخلت معه أو كانت ترافقه من قبل لكنه احتفظ بشيئين فقط، هما اسمه وعنوان سكنه.

قُضّت مضاجعي وطال شعر رأسي، تعمصت عيناي من السهر، تُرِكتُ بين جنبات تشبه حواف بير الذّهب، أناديها ولا تسمعني، أحاكيها وتتجاهلني، كأنها تقول لي: مر من هُنا كثيرون غيرك ولم أقدم لهم سوى حاجزا منيعا يحميهم من المطر، ويمنعهم من الخروج لأن المفتاح ليس بيدي... أقنعتني، فهي بالفعل لا تمتلك أي مفاتيح ولا أي قرارات بالإفراج

أهرب قليلا لأحاول النوم، لكن لا فائدة من ذلك، فمصيري مرتبط بيد آخرين لا أعرف أشكالهم ولا متى سينادون باسمي.

ثمانية وأربعون يوما... مللت فيها بنطالي الأسود وقميصي الأبيض المعرق بمربعات صغيرة تشبه شبك الزيارة الأسود، حيرت فيها تلك الجدران بالكثير من حوارات صامتة، لكن لله دَرُكَ يا صمتا لا يُسمع ويا حوارا لا يَنفع، أُصبّرُ نفسي بأن للمظلوم صوتا لا بُدّ أن يُسمع يوما ما.

أراقب الكثيرين من النُزلاء وهم يتلقون اتصالات هاتفية من محاميهم حتى بدأت أعرف مواعيد جلساتهم في المحكمة، لكن لا قضية لي تستوجب وجود محامي دفاع يخبرني أي موعد.

لا أعلم أين ملف قضيتي ومن المسؤول غيري عن الوصول إلى هُنا؟ لا أحد بالطبع... أنا من أوصل نفسه إلى هُنا لمجرد السؤال اللعين لماذا تشتمني برسائلك، تارة أقول: لا بُدّ أنني أخطأت ويجب معاقبتي، وتارة أخرى أقول: المظلوم لا بُدّ من وجود مَن يُنصِفُه.

رحت أنتظر الفرج مع كل حركة أقوم بها من التنفس خارجا أو النوم داخلا، ومع مراقبة من يرسمون الأبواب والأقفال وقلوب الحُبّ في دفاترهم، أراقب من يكتب الشعر والعَتاب أيضا... كل شيء أفعله الآن لأسهل على نفسي مرور الأيام، هي مسرعة بلا شك، لكن دون أي شعور مني أو من أي رفيق هُنا، كُلّهم يعلمون موعد خروجهم وأسباب سجنهم إلا أنا، ربما أنا المذنب أو المجرم الخطير، لكن لا أحد يخبرني بشيء.

حسنا... سأراجع الإدارة بذلك، علّهم يخبرونني بأمر يخفف من حدة التوترات، والمشاجرات القائمة بين ضميري وأقدامي التي ساقتني إلى ذلك المُسيء.

تأكدت في ذلك المكتب المزدحم برجال يرتدون بوريهات بشعار الأردن الجميل من عدم وجود أي ملف لقضية تخصني، سوى مذكرة توقيف من مركز أمني فرعي على ذمة التحقيق، على الرغم من بحثهم عن ذلك وقناعتهم أن لا سجين هُنا دون سبب.

لا تحاول إثبات براءتك أمام أناس يطالعون عشرات القضايا يوميا عليك البحث عن براءتك عندما تكون مكبلا أمام القاضي

قلت : حسنا كيف أصل إليه؟

قال الضابط : لا يوجد قضية... كيف نوصلك إليه؟

قلت : لِمَ أنا هُنا إذا؟

قال : أحضروك الشرطة بناء على شكوى شخصية، ولم يصلنا أي شيء بعدها.

عليك التصرف بما تسطيع.

ضحكت وقلت : كيف أتصرف بزنزانة كادت الأنفاس فيها أن تنفذ؟

قال : عليك الانصراف لحين ورود أي مذكرات بحقك.

عُدت إلى حيث أتيت لا أحمل أي جواب لِلِمَ أنا هُنا؛ ليبقى ذلك السؤال اللعين يسلب قدراتي على الصبر، وينعت ذاتي بِكُلّ صمت، لكن الأمل يقول: لا بُدّ لشمس الحرية، أن تشرق يوما ما.

القانون في بلدي عادل بلا شك وأنا أواجه المصير خطوة بخطوة غير آبهٍ؛ لأنني على قناعةٍ بأن الدفاع عن النفس حق مشروع، والتصدي للمسيئين دون سبب أيضا حق مشروع، لكنني أخطأت حين تركت القانون على عتبات مركز أمن بني عبيد في الحصن، وتعديته إلى أن وصلت الدجنية؛ حيث بدأت قصة جديدة تعتري الجسد والفكر دون موعد.

تمضي بي الأيام نحو اليوم الثامن والأربعين؛ لأجد نفسي أمام جمع كبير من السُجناء والمسؤولين بساحة قرر أحدهم الاطمئنان على السُجناء بحكم واجبه التنفيذي والإنساني، لكن لوهلة كان سؤاله لنا من يتوقع أنه جاء إلى هُنا ظلما؟ يدوي في مسمعي كسحابةِ مطر هلّت بفرجها، فما كان مني إلا إجابة تقول: أنا مظلوم هُنا، وهو ما يثير استغراب الجمع بأكمله... فقال: كيف ظلمت؟

قلت له: لا أعلم لِمَ أنا هُنا

ليقول: تفضل معنا، مستذكرا تلك الكلمة التي دخلت على أنغامها السجن، لكن لا أعلم هل ستكون نغمة إطلاق سراحي كما نغمة اعتقالي أم لا.

أُلغيّت كلّ التساؤلات التي راودتني عن سبب اعتقالي، وحكمي وقضيتي أو ملفها... وجودي هُنا وموعد خلاصي ينتهيان بمكالمة هاتفية من هذا المسؤول؛ لجهة في القضاء، كيف يودع هذا الشخص بالسجن دون قضية؟ ولِمَ لَمْ يُطلَب لأي هيئة تحقيق؟

ليكون الرد، لا يوجد بحق هذا الاسم أي مذكرات توقيف، أو سجن أو حكم سوى أن مركزا أمنيا في إربد، أودعه لديكم بحكم الإجراءات المتبعة بحق أيّ شخص مُشتكى عليه.

قـال المسـؤول : حسـنا أنا أنتظـر مـنكم كِتـابا، للإفـراج عنـه أو ملفـا بقضيته؛ لأكون منصفا في القانون.
ومـا هي إلا سـويعات قليلة وتشـرق الشـمس بـين غيـوم بيضـاء وسـوداء لـتعلن موعـد الإفـراج عـني الذي غـاب كثـيرا عـن مُخيلـتي، وكان مجهـولا تمامـا لعـدم درايـتي بـأي ذنـب اقترفْتـه، لكـن الإفـراج مرهـون بموعـد مـع القاضي فيما بعد، فهو من سيخبرني بقضيتي وحكمها.

خرجـت مـن السـجن لا أعـلم مـاذا دار خارجـه في غيـابي، ولا أعـلم عـدد القضـايا الـتي نسـبت لي، ولا عـدد سـنوات حكمـي، ولا حـتى هيئـتي النفسـية أو البدنيـة، مـا كنـت أعـلم أنهـا منهـارة إلا عنـدما تنفسـت هـواء الحرية خارج الزنازين.

أحـدهم ينشـر أخبـارا بإلقـاء القبـض علـيَّ في مـكان مشـبوه ويتنـاول الخبـر علـى المـلأ؛ لدرجـة أنـه اتصـل بجهـات قضـائية عـدة مـرات ليطْمـئن أني لسـت بخيـر، وأني صـاحب قضـية وجـرم لا يُغفـران حـتى يثبـت للنـاس أنـه صـادق بنشـر الأخبـار، وأنـه محلـل نـاجح لدرجـة أنـني ظننـت أنـه لا يمـلك أيّ عمـل آخـر سـوى متابعـة قضـيتي، الـتي ربمـا تكـون بـراءتي منهـا تهمـة كبيـرة له وورطـة أمـام النـاس صَـعُب عليـه الخـلاص منهـا، بعـد كُلّ مـا أطلقه من إشاعات منذ الدقيقة الأولى لاعتقالي.

لكنني فور حصولي على قرار البراءة من المحكمة الموقرة، التي أؤمن أن العدل سياستها ومنهجها، أرسلت له نسخة حتى يطفأ قليلا من النار التي أشعلها بنفسه، وترك بسببها أهم أسس حياته للتطلع لحياة الآخرين.

قد نتناسى في الكثير من الأحيان كُلّ المقولات أو الحكم والأمثال عندما تلامس غيرنا، ولا نصدقها أو نؤمن بها إلا عندما تنطبق علينا وهُنا أشير إلى المثل الشعبي " يا ما في السجن مظاليم "

برغم ذلك من الطبيعي أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه، ولا بُدّ أن أعود إلى عملي بحكم صدور براءتي من قضيتي الرئيسة ومن القضايا الشفهية التي لم تؤثر لوهلة واحدة على مسيرتي الشخصية، ولم تكن إلا تجربة خضتها بالإكراه دون نية مني؛ لذا لست مجبرا على إثبات تلك البراءة إلا أمام أبي وأمي الذين تحملوا من الكلام ما فيه الكفاية طيلة غيابي في السجن.

تجربة تعلمت منها دروسا كثيرة، من أهمها أن الإنسان ليس مجبرا على البحث عن براءته أو عن أي أدلة تقنع الآخرين، وألا تكون تجربة كهذه هي نهاية الطريق في حياته الشخصية، وعليه أن يكون قويا مُقتنعا أن كلام الناس لا يقدم ولا يؤخر حينما يكون واثقا من نفسه ومن أفعاله ومن وجود قانون يضمن العدل لكُلّ المتهمين.

يُطلقُ سراحي... وبقي الأمر بانتظار قرار رسمي من المحكمة التي ستحدد لي موعدا للجلسة التي تفاجأت بها، أن تهمتي هي إساءة لمغترب، في إشارة لحارس المزرعة، الذي طلب منه القاضي أن يتعرف عليَّ حينها ليرد مستنكرا " لا أعرف هذا الشخص"... هذه المرة الأولى التي أقابله بها، وعند الضغط عليه بالتحقيقات، اعترف أنني التقيت به وسألته لِمَ هذه الشتائم.
قال الحارس للقاضي: لقد قابلته على مقربة من بيتي وقلت له: إن الرسائل بالخطأ وغادرني دون أي إساءة لي، وتحسبا لتقديم شكوى تُدينني على رسائلي استبقت الأمر وتقدمت به بشكوى اقتحام بيتي دون حق، وهو ما ناقض كلامه في الشكوة التي سُجنتُ عليها؛ لتعلن المحكمة العسكرية بعد أيام قليلة براءتي، واتهام الحارس بإلقاء التُهم الباطلةِ على أحد أفراد القوات المسلحة الأردنية؛ وأحيل إلى القضاء المدني لينال جزاءه بالعدل والقانون.

عاودت حياتي الطبيعية وعملي في السلك العسكري حُرّاً كما كنت وبنشاط أكبر مما كان في السابق، ورحلتي الأسبوعية من طبربور إلى صيدور تعود أدراجها أيضا، والجميع يطالعونني مستغربين مما كانوا يسمعونه عني في غيابي عنهم.

هُناك أسرة عفيفة، ربما لا يهمها من هذه الحياة أكثر من دوام الخير والسعادة على مُحيا أبنائها... متى سنفرح بك؟ سؤال يتردد برحم الجلسات العائلية باستمرار، كيف تفرحون بي وأنا لا أملك بيتا خاصا؟ هذا أمر غير مستحب لديَّ، ولن أقدم على تلك الخطوة دون أن أمتلك بيتا مستقلا وإن كان صغيرا، كأي شاب بنى بيتا وأسرة بطريقة سليمة بعيدة عن التورط بأي ديون أو قروض بنوك.

لا بُدّ من مشاورات مع أبي، ولا بُدّ من دراسة الأمور من جميع النواحي، الجهود إذا تكاتفت لن يكون من الصعب إلا أن يَسهُل أمام كل المنعطفات، يد أبي وجهوده حاضرة في أبسط وأكبر الأشياء في حياتي كما عودني وأخوتي من صغرنا، وبدأ تشييد بيت جديد سيحمل الكثير من القصص في جنباته وسيحتوي زوجين لم يلتقوا إلى الآن ولا يعرفون بعضهم بعضا.

عُدت بذاكرتي للكثير من الأعوام التي كانوا يقولون فيها: إن تكلفة بيت العريس قد تكون عشرة دنانير؛ لأتصفح كيف أسس أجدادنا بيتا متينا بتكلفة كهذه، لكننا استبدلنا مواد البناء القديمة الخاصة بهم من اللِبن والطين والتبن وجذوع الأشجار والقصيب، بطوب وإسمنت وجسور حديدية ورمل كوارس، ذات تكاليف قد تتجاوز بناء عشرات البيوت من بيوتهم.

الفكر الآن يتشعب بين ثلاث، والجهد يتضاعف بين آلة موسيقية وأوامر عسكرية وحفلات موسيقية، وبين فرصة خاطفة أتفقد فيها لوحات زبائني وديكورات محالهم، وآخِر أخبار الطوب والإسمنت وتأسيس الكهرباء في بيتي.

ماذا سيستوعب العقل إذا اختلطت الثلاثة ببعضها؟ ومن يُنجيني من أي خلل قد يحدث إذا تشابكت الأشياء؟ فأنا الآن موسيقي في النهار وخطاط في الليل والكهربائي الخاص لبيتي في إجازتي، السير في ليلة مظلمة من عَمّان إلى إربد ليست صعبة كما نتخيل، وربما تكون مسافة الطريق والوقت فيها فرصة للاسترخاء قليلا، واستعادة جزء من الطاقة لإنجاز شيء مما أردت، والعودة في الصباح لطابور جديد تُعزف فيه المارشات بخطى مرسومة بقيادة عصا المايسترو القائد.

المواقـف كثيـرة لا تُعـد ولا تحصـى، وكُلّـما تسـارعت الأيام ازدادت مواقفهـا وخباياهـا، أحـدهم يُغـادر وغيـره يـأتي، والجميـع يضـاف إلى سجـلات التعـارف بحـكم العمـل والمـكان؛ ليبقـى في الذاكـرة مهـما عصـفت بنـا الأيام وأصبح لي في كل قرية أردنية صديق، أو كما يقولون: في كل بلد جامع.

اختيـار شـريكة حيـاتي ... البيـت جديـد والهمـم تتـوزع وتسـاند بعضـها وتفـتح الآفـاق أمـامي؛ لأصـبح قـادرا عـلى الدخـول في غـمار الحيـاة الزوجيـة الـتي أرى منهـا أمـرا سـهلا، لا تعقيـد فيـه إن عُقِـدت النيـة السليـمة في وقتها الصحيح دون أي عثرات.

كان الرابـع عشـر مـن شـهر رمضـان لعـام **٢٠٠٥** الموعـد الأول للجلـوس مـع مَـن اخـترت بنظـرة شرعيـة، بموافقـة الأهـل عـلى قـراءة الفاتحـة بـين العـائلتين؛ ليحـدد الحـادي عشـر مـن تشـرين الثـاني مـن نفـس العـام موعـدا لعقد القران، والثامن عشر من شهر آب لعام **٢٠٠٦** موعدا للزفاف.
تغنيت حينها بعروسي بكلمات بدوية قلت فيها:

يا زين الوصايف بمحيّاك
لا عاكست نورها بخيوط الإشراقة
لاجا طريّاك شدّت القوافي شدّ هجن في وطية اسباقه
في غيبتك كل الشوق يطري عليك
ولا يوقف الحال لباقة

لا لفيتي حيرتي الأشواب والشيبان
ورميتي بسهام الرمش
كل من في قلبه حب عياقه
يازين ذاك المبسم لا انتحل قوة وسط الأنجال
و لمع بين الخلايق مثل ابراقه
يفداك القلب وكل شريان
يسير فؤاد بين الحنايا يسامر أعشاقه
يا طيب منطوقك بالطيب لا نطق
عاث بين العذاري ريح الربيع وعاف العليل ترياقه
يا حليل ذيك الأهداب لاجت تسامر اللّيل
انتثر من العز ريحان وعباقة
يا زين عيون تحتمي بمحاجر تشبه كهوف
تصد الحساد وتهد استباقه
تنسجين من ظفايرك عذوب اللحن
ولا غازلها الهوى غارت منها وريدات الباقة
مبخوت من عاشّر الزين وحلاه
بنت الحساب وانسابهم للخير سباقه
بالخلق يا زين اتسهل غرامك
ومذهول كل من ساوم حلاك .. زاد بيك سياقه

***

موعد زفافي الذي سبقته بيوم الحفلة المتعارف عليها في قريتي وسائر القرى التي تحيطها بالتعليلة، هُنا سيجتمع أناس كثيرون بدعوة مني ومنهم من قدم دون دعوة، ربما اتخذ من صوت الأهازيج والطرب مسلكا لأذنيه وقدميه.

الخميس / السابع عشر / آب / ٢٠٠٦

على بقعة صغيرة من أرض بلدتي تجاور بيتي الجديد، والتي جُهِزَت بسواعد جميع أبناء الحارة استعدادا لاستقبال ضيوفنا بساحة رطبة مؤهلة؛ لاستيعاب فرق الدبكة دون انتشار أي غبار من تلك الأرض الرملية... بدأت حكاية غير متوقعة وكانت خارج حساباتي

لحظات أشبه بتصفية الحسابات لا أعلم مصدرها، لحظات وصفتها بالظلم لي ولأهلي، فنحن عائلة هادئة لا تعرف للشر طريقا، تتصف عند الجميع بالهدوء ولا تعتنق إثارة الفوضى ولا تعكير صفوة أحد.

أعداد كبيرة من الشبان في الدبكة التي شهدت في لحظاتها الأخيرة تواجد الكثيرين من كبار البلدة، الذين حضروا تلبية لدعوة والدي ومحبة منهم بمشاركته فرح ابنه الأول.

بالتزامن مع مد يدي للحِناء المتعارف عليه في الجزء الأخير من السهرة بأعراسنا، ينقطع التيار الكهربائي فجأة على من كان يقود تلك الدبكة ويوزع الأدوار فيها، ما أثار غضب الكثيرين دون وجه حق، وكان بالإمكان أن تمر تلك الدقائق دون ما حدث.

اتصالات هاتفية وصلتني أثناء الحناء من مسؤول الفرقة الموسيقية يخبرني أنه يتعرض لتهديدات من بعض الشباب، بسبب انقطاع التيار الكهربائي الذي لم يكن هو السبب فيه، لكنني ما استطعت ترك الحناء لحل الخلاف الذي كاد أن يشتعل اكثر لو أخبرت من حولي بذلك.

مع انتهاء الحناء اشتعلت الأمور وتفاقمت وأصبحت بالفعل خارج السيطرة... منهم من تصرف دون إذن لتحويل مكان الحفل إلى ساحة معركة أصيب فيها من أصيب وجرح من جرح، ماتسبب بانسحاب كثيرين ومغادرتهم المكان، تجنبا لأن يطالهم شيئ من ذلك الغضب الذي تناثرت به كل مقتنيات المكان التي تخصنا والتي هي ملك لمن جاء مشاركا بأجهزة ومعدات الحفلات والفرقة الموسيقية.

ربما أنست لحظات الغضب تلك جميع المتعاركين أننا من سيتولى تكاليف كُلّ ما تسببوا به من ضرر، وربما تناسوا أيضا أن ما حدث للتيار الكهربائي، كان أمرا لا بُدّ من أن نستقبله برحابة صدر على اعتبار كُلّ واحد منهم مُعزبا للضيوف وليس عدوا للعريس وأهله، فنحن لا نستحق ما نتعرض له أمام ضيوفنا الذين هبوا من كل مكان للمشاركة في العرس.

في لحظة ما عاد الهدوء... لكن يبدو أن كل شيء قد تكسر وقليل من الأشياء التي سلمت من ذلك، وعلى أبي أن يتحمل تكاليف ما وقع الآن، رغم تنبيهه لي أن هذه الحفلات باتت تشكل الكثير من المشاكل بين الناس دون البحث عن الأسباب، لكنني أصررت أن تقام حفلتي مثلُها مثلُ أي حفلة يقيمها أي عريس فرحا بزفافه.

مواقف صعبة مررت بها أنا وأبي وأعمامي وأفراد عشيرتنا في تلك الليلة، كان أخطرها تهديد أهل وعشيرة أحد المصابين بإصابة ليست سهلة بمهاجمة عشيرتنا وقريتنا بكل ما يملكون من قوة، وهو أمر ربما لا يلامون عليه فابنهم مصاب برأسه ومشاهد الدم التي وصلتهم مثيرة ومستفزة لكنه بحمد الله نجى منها.

تـدّخل رجـالات القريـة ومخـاتير عشـائرها؛ لإنهـاء الخـلاف والجلـوس عـلى طـاولة حـوار بيـنهم وأقـاربي، وبـين أفـراد ووجهـاء تـلك العشـيرة؛ للتوصـل إلى حل الخلاف بطريقة سلمية.

مصـور الحفـل لم يتـوانَ عـن التصـوير ولم يتوقـف، بـل استمـر بـذلك ليبـرهن لنـا بعدها بأيام مـن تسـبب بـذلك وكيـف بدأت الأمـور تخرج عـن السيطرة عند البعض دون مبرر أو وجه حق.

الموقـف لا أحسـد عليـه، فقـد جعـل مـني شـابا منهـارا يسـتقبل ضـيوفه في اليـوم التـالي عـلى الغـداء الرسمـي المقـرر للعـرس، بوجـه مُتعـب وفكـر مرهق... كيف أقابل عروستي وأنا بهذه الملامح؟

بكـوني أنا وعـائلتي لسـنا مـن تسـبب بـذلك، قوبلنـا بالـتماس العـذر مـن الجميع، ومـا كان مـن محبينـا إلا التظـاهر أن مـا حـدث أمـر طبيعـي وعلينـا إكمال الحفل وكأن شيئا لم يكن.

لم تكن زفتي كزفة فراس الحسين عام ١٩٩٢، الفارق الزمني أربعة عشر عاما تغيرت فيها الكثير من الأمور، الناس أكثر انشغالا مما في السابق والمشاركون والمدعون أقل أيضا، الأعراس أصبحت تنحصر شيئا فشيئا إلى أن أصبحت على صعيد العشيرة والقرية والأصدقاء، أي ليس كما في السابق، حينما كانت الأعراس أقل مما هي عليه حديثا.

وعي الناس - أيضا - أصبح أكبر وذا مسؤولية أكبر كذلك؛ حيث لم تشهد زفتي إطلاق العيارات النارية لما لها من أثر خطير على جموع المشاركين، لم تُغرني تلك الزفة ولم تُنسنيها رائحة المناسف وما حدث في الحِناء.

في خضم ترتيب ربطة العنق ورشات العطر من المشاركين في إلباسي بدلة الزفاف، وشد الحزام على خصر يستعد لمسيرة تقارب نصف الساعة تحت المضلة السوداء، وجهٌ مُتعب مليء بالتفسيرات التائهة بين التفكير وبين أسباب ما حدث، بدأت الزفة بـ (شطبنا اسم العريس من دفتر العزوبية)، وانتهت ببنخ ياجملنا ودبكة شارك فيها جميع الحاضرين أمام سور مدرستي التي تركتها قبل عشر سنوات، يتغنون عليَّ بـ (كان أعزب داير مبسوط، قله عقله وتجوز).

لم أكن شابا ذا منصب كبير؛ لأتمكن من قضاء شهر العسل خارج قريتي أو بلدي، بل كنت موظفا بسيطا مُنح إجازة أقصر من أن تكون شهرا لأسميها شهر العسل، أيام قليلة وتعرفنا أنا وعروسي على الكثير من أطباع بعضنا البعض، التي أوصلتنا إلى أننا نعيش الآن حياة مختلفة عما كنا فيها سابقا، وأن لِكُلّ مِنا مسؤولية تجاه الآخر، وأصبحنا أسرة واحدة تستعد لمواجهة كل ظروف الحياة بيد وروح واحدة، متكاتفين في السراء والضراء.

بعد مضي ثلاث سنوات عرفنا أن سبب انقطاع التيار الكهربائي هو إرسال شخص أعرفه أحدا من الصغار لفصل التيار وإعادة تشغيله بسرعة لعدة مرات متتالية، من باب التشويش والانتقام مني على خلاف قديم، كان قد افتعله هو ذات يوم، وأخفقت عدة محاولات له بافتعال مشاكل ضدي أكثر من مرة فيما بعد عرسي.

بعد أسبوعين من زفافي...

تلقيت مكالمة هاتفية من خالي باسم في الولايات المتحدة الأمريكية يهنئني بزفافي... المكالمة بنبرة غريبة وصوت مختلف عما اعتدنا عليه سابقا، قال لي: إني متعب جدا، وأشعر أنني أودع الحياة، مركزا فيها على توقعه أنها المكالمة الأخيرة بيني وبينه، لافتا إلى أن الحياة مهما طالت... تبقى قصيرة.

استوقفتني تلك المكالمة لزمن طويل، أعادتني الكثير للوراء وللكثير من الصور والذكريات، تذكرت فيها قصته المشهورة " إبريق شاي صنعه لأصدقائه ذات ليلة مضيفا له الفلفل الأسود المطحون بدلا من القرفة " تذكرت سفره لأول مرة عندما جاء يودع أمي صباحا، وكُلّ زياراته للأردن بعدها...

الرابع والعشرون / أيلول / ٢٠٠٦

اليوم الأول من شهر رمضان لهذا العام، وهو رمضان الأول في حياتي الزوجية، وكنت احتفظ باسم بيني وبين زوجتي لمولودنا الأول، مرت خمسة وعشرون يوما من هذا الشهر، وإلا بعشيرة البشايره وسكان قرية صيدور وكفر أسد وحوفا وصما ودير السعنة، وما حولها من معارف وأقارب، يتلقون نبأ وفاة خالي باسم.

توفي الشاب الوسيم ... الذي انتقل للعيش في الولايات المتحدة الأمريكية عام **١٩٨٨**، كغيره من شباب صيدور واربد الذين يطمحون؛ لتحقيق حلم ما من خلال الاغتراب عن بلدهم... كان يوم سفره هو اليوم الأول لي في الصف الأول الابتدائي وعاش في أمريكا قرابة ثمانية عشر عاما، إلا أنه أصيب بمرض عضال في غربته، ووافته المنية في ولاية نيوجيرسي صباح الخامس والعشرين من شهر رمضان للعام ٢٠٠٦ **(١٨/١٠/٢٠٠٦)** ودفن في مقبرة البلدة الشرقية بعد وصول جثمانه للأردن.

كان موعد استقبال الجثمان في مطار الملكة علياء، مشابها تماما لموعد استقباله لأول مرة عام **١٩٩٤**؛ حيث شارك فيه جموع كبيرة من الأهل والأقارب والجيران في صيدور وما حولها، مجسدين بنزعتهم كُلّ معاني المحبة والإخاء، والحس الواحد كأنما الجميع رجل واحد.

بعد تلك الأيام التي غمرتنا بالحزن في كل مكان يتعلق بخالي باسم، ما كان مني أنا وزوجتي إلا أن نهدي اسم مولودنا الذي ننتظر، إكراما لأمي وإحياءً لاسم شقيقها، وهُنا تغير المُسمى الذي احتفظت به بنفسي من أبي يزن إلى أبي باسم؛ ليحمل ابني اسم خالي مدى حياته.

تمضـي الأيـــام، وأصبحت أبا وخطاطـا وعازفـا موسـيقيا محترفـا قـادرا عـلى قـراءة أي معزوفـة موسـيقية نظـريا وتأديتهـا عمليـا، وبـدأت اللوحـات الإعلانيـة تتسـع في السـوق أيضـا، لكـن لا شيء يبقـى كـما كان ولا بُـدّ للكثيـر من الأحداث في أي مسيرة عملية أن تتغير.

وبقـرار مفـاجئ أعلنـت اسـتقالتي مـن السـلك العسـكري، والتفـرغ للعمـل في مهنـة الخـط واللوحـات الإعلانيـة، الـتي كنـت قـد أعديت العُـدة لهـا قبـل الوصول إلى ذلك القرار.

هُنـا عـليَّ مغـادرة القـوات المسـلحة الأردنيـة معتـزا بخـدمتي بـين صـفوف الموسـيقيين مـن أبنـاء محافظـات بـلدي الحبيبـة، واعتـزال المكان الذي رسم لي جزءا لا يُنسى بأيامي.

سـألتفت إلى عمـلي كخطـاط وصـاحب مؤسسـة لتنفيـذ اللوحـات الإعلانيـة في إربـد، والذي كان حلـما قـديما تعلقـت بـه مُـدركا أني لم أضـع طريقـي وأرغب الاعتماد على نفسي بكُلّ شيء.

نسـيان بعـض الأمـور سـهل عنـد الكثيـرين وصعب عند آخرين وأصعب مـا قـد تواجهـه في حياتـك، هـو أن تُصاب ببلاء تطفل غـيرك دون ذنب منك، دون حق، ودون إذن، دون أن تَعلم أصلا.

اللوحـات جمـيلة والاسم جميـل عنـدما يتـداوله النـاس فـيما بيـنهم، وشـعور يحفـزني عـلى توسـعة أعـمالي، والتـرويج لهـا عـبر شاشـات التلفاز والصـحف المحليـة والتجاريـة، فهـي مصـدر رزقي وكل مـا أفعـله؛ لأجلهـا سـيعود عـليَّ بالنفـع والشـهرة لأتمكـن مـن الاسـتمـرار، لأن الشـهرة تلعـب دورا كبيـرا في توسـيع الانتشـار والوصـول إلى أكـبر عـدد مـن أصحـاب المحـال الكبـيرة والمعروفـة، فهـم فرصـة لجـذب عمـلاء جـدد، لكـن فكـرة الاسـتقالة مـن القـوات المسـلحة لـن تـرضي كثـيرا مـن النـاس في مجتمعاتنـا الريفيـة البسـيطة، وسـتبقى محطـة لتسـاؤلات عديـدة، وذلك حسـب فكـر الشخص ونظرته للحياة العملية، وهو أمر لا يهم بالنسبة لي.

مـع منتصـف عـام **٢٠٠٨** أعلنـت حـريتي مـن أي مسـؤولية عسـكرية صغيرة كانـت أو كبـيرة، أنا شـاب أؤمـن بـأن أي نجـاح أو إبـداع لـن يـأتي بالصـدفة أو بالسـهل أو بضـربة حـظ، بـل هـو نتـاج خـبرات اكتسـبتها بعـد تعب ومشقة ومعاناة طويلة.

الخطاط حسام بشايره... اسم بدأ يلمع شيئًا فشيئًا في أسواق مدينة إربد، ومحافظات الشمال الأردني ووصل ذات يوم إلى العقبة والكرك، وهذا لا يعني الخلو من العثرات أو القرارات والحسابات الخاطئة، فهي أكثر بكثير من الأشياء السهلة والميسرة.

أخوض الآن تجربة حرة فيها الخطأ محتمل، لكنه غير مقبول والمسؤولية فيه أكبر، وخوض غمار التنافس ليس بالشيء السهل، هُنا يظهر من يُحبّ لك الخير ومن يغار من أبسط نجاح قد تحققه، وهُنا من يظنك فريسة سهلة إذا ابتسمت له واستقبلته برحابة صدر.

كُلّما ارتفعت الأمور بالشهرة قليلا، كُلّما زاد عدد الأعداء ممن لا تسبقني أي معرفة بهم، يأتون بغير موعد وينفرون من أي تواجد لي، يحاولون العبث براحة البال.

ينسقون الكلام ويلفقونه وينشرونه بطرق مختلفة، لا يهمهم منها إلا سقوطي كشاب يغارون أفكاره البناءة، ويتجنبه كثيرون خوفا من أن يُبين لهم نقاط ضعفهم التي كانوا يحاولون منحها لغيرهم بدلا من حملها.

الصديق الوفي.. لا أنكر وجوده ولا أنكر يده الملطخة بالخير كلما استطاع، والتجربة ليست صعبة، لكن الصعب هو من تواجههم في خضم الأيام، وعند محاربة النجاح بكل قواهم سيحدثونك عن الإنسانية، أي إنسانية تتحدثون؟ عن إنسانية قطع أرزاق الآخرين؟ أم إنسانية الزور والبهتان؟

المؤسسة بدأت تتوسع، ويد أبي تتسع أيضا... عنواني بات واضحا أمام كل من اتجه من مجمع الأغوار الجديد باتجاه جامعة اليرموك، أو مجمع عَمّان... هُنا المنحنى البارز الذي كان سببا بانتشار الاسم، وجعله محط أنظار المارة لاستخدام اللون الأصفر في تصميم ديكورات المؤسسة واللوحات الخارجية.

لأبي دور كبير في شراء سيارة شحن خاصة للمؤسسة، وربما كانت اللوحات الملتصقة بجنباتها بخط كبير وواضح، هي السبب في اتساع انتشار ذلك الاسم، من خلال جولاتها وتنقلها في كل مكان، وربما هو السبب وراء تكاثر الأعداء، وكما نعرف في كل مرحلة عملية هُناك أقران للنجاح وأعداء أيضا.

المـارة كثـيرون وركاب الحـافلات كثيـرون، الغـرباء والأقـرباء أيضـا كثيـرون، والشـهرة لم تكـن بـأمر الصـدفة كـما يظـن الـبعض، بـل ثمـرة متاعـب لم تكـن بالسـهلة، وكانـت عـن دراسـة وتفكيـر عميـق وجهـود لا يعلم بها إلا الله.

اعتـدت في صـغري أن أكـون حيـاديا مسـالما، أحـب الهـدوء الذي يرفضـه الكثيـرون ويعتبرونـه ضـعفا، لا أعـرف للحقـد مـكانا أو زمـانا، أُصـبت بالكثـير دون أن أُصـيب أي أحـد بـأذى، سـامحت عشـرات المـرات عنـد حقـي وكأنـه شيء لم يكـن، لـيس ضـعفا مـني بـل تسـامحا عفـويا ينتـابني دون أن أحمل في قلبي أي بغضة تجاه أي شخص.

النـاس يختلفـون في طبـاعهم، مـنهم مـن يمازحـك ومـنهم مـن يُكِـنُّ لك كل محبـة واحـترام، والحيـاة لا تخلـو مـن المتنمـرين دون سـبب، مـنهم مـن يُلفـق لك الـتهم ويخبـئ لك في قلبـه الكثيـر مـن الحقـد، لكـن بطريقـة لا تسـتطيع مـن خلالهـا أن تكشـف مـا يُخفيـه، ومـنهم غـير قـادر عـلى أن يخفـي أي شيء، وغالبـا مـا يكـون واضحـا في تعـامله مع الآخـرين، وهـذا مَـن يجـب أن نشكر وضوحه الذي يعتبره جزءا من أسلوب حياته.

بداية كانون الأول من عام ٢٠٠٨... جاءني شاب بملابس بالية، يبدو عليه الإرهاق المادي والمعيشي باحثا عن فرصة عمل، قال إنه يمتلك الخبرة الكاملة في تنفيذ اللوحات الإعلانية، ونظرا لتعاملي مع الكثيرين ممن سبقوه ويدعون الخبرة في هذا المجال، كنت حريصا في التعامل معه حتى أخرج بنتيجة ترضيني وترضيه، وألَّا أكون ضحية لظروفه المادية التي لا أنكر أنه استعطفني بها، قلت له: أنا أرحب بانضمامك إلى فريق العمل، ولكن سنبدأ العمل سوية اعتبارا من الغد وتحت تجربة تمتد لأسبوع فقط، مهما كانت نتيجتها سأمنحك خمسين دينارا عِوضا عن وقتك.

لم ألفت النظر حينها لجهوده لأنني مررت بالكثير من قبل، ولم يكن منهم سوى الكلام المعسول، وكثير من القصص والخبرات الوهمية، وأنا لا أريد تكرار نفس الأحداث بنفس الطريقة، قلت له: أريد أن تكون التجربة العملية برهانا على جميع ما ذكرته من خبرات، وحين انتهاء المدة المتفق عليها سنقرر الاستمرار والتعاقد، أو الاعتذار وذلك بحسب ما يُبرهنه عملك في الواقع، فوافق على ذلك.

قبل إشراقة شمس اليوم الأول من الاتفاق، تلقينا نبأ وفاة زوج أختي إثر مرض ألم به فجأة، وحينها أخبرته بعدم فتح المؤسسة نهائيا هذا اليوم، فالظرف قاهر مهما بلغ حجم العمل في المؤسسة، وركزت خلال مكالمة هاتفية معه على إبقاء الأبواب مقفلة حتى إشعار آخر، واعتبارها عطلة مدفوعة الأجر.

بعد لحظات من مرور الجنازة المتوجهة من إربد إلى كفرأسد، من أمام محلاتي بحكم موقعها على الشارع العام، عوتبتُ باتصالات عديدة من أبي وأقاربي وأصدقائي، على فتح محلاتي أمام الناس في هذا الوقت، والتي ربما توحي للكثيرين عدم اكتراثي بما نمر به من ظرف، وأنا بالفعل لم أكن متواجدا في إربد، وما كنت أعلم أن تعليماتي خولفت، ومحلاتي تُفتح أمام الجميع.

هُنا التمست لامبالاة متوقعة، فقد مررت بالكثير من الأشخاص وأصبحت أتوقع كل شيء، وصرت مستعدا لأي مفاجآت، عاودنا العمل بعد يوم واحد فقط، وتابعنا باقي أيام الأسبوع؛ لينتهي دون أن يحرك هذا الشخص ساكنا في العمل رغم مراقبتي له، وعندما يُطلب منه تنفيذ شيء ما، يتبين أنه لا علاقة له بالأمر.

في نهاية الأسبوع كان موعدا بيني وبينه بحسب الاتفاق، وأخبرته أني عند الوعد، وسلمته خمسين دينارا معتذرا منه عن الاستمرار، لأنه لا يلبي متطلبات العمل، منحته زيادة ستة دنانير أخرى كان قد طلبها لشعوره أن الخمسين دينارا غير كافية؛ حيث كان اليوم قريبا من عيد الأضحى المبارك لذلك العام، وانصرف كُلّ منا حيث أتى.

بعد فترة لا تتخطى الشهر، بدأ الشاب وعدد ممن حوله يتداولون مشهدا يوحي أنه عمل لدى مؤسستي، دون أن يتقاضى أي أجر، علما بتوقيعه إيصالا باستلام مبلغ ستة وخمسين دينارا نظير أسبوع تحت التجربة، لكنه بقي مُصِرا على تشويهِ صورتي بقدر ما يستطيع وطالب بحقه أول مرة وتسلم مبلغا آخر وانصرف.

وبعدها قام بزيارة أبي في وقت متأخر من الليل، وبطريقة مزعجة لا ترضى أحد، مُطالبا بحقوق يدعي أني هضمتُها، علما أن مدة عمله لم تتجاوز خمسة أيام، فأثبتُ ذلك أمامه وأمام أبي؛ ليعترف أنه تسلم المبلغ دون تأخير مني... طرده أبي مُلقيا عليَّ لوما كبيرا بالتعامل مع هكذا أشخاص.

بعد عدة أيام أرسل ذات الشخص شيخا مُسنا من أقاربه يطالب أبي بحقوقه، الأمر الذي أثار غضب أبي قائلا: أنت عملت لمدة أسبوع وتقاضيت أجرك، ما الذي تريده الآن؟

وإذا به يقول : يجب عليكم دفع راتب شهر كامل.

رفض أبي ومَن أحرجه معه من أقاربه ذلك رفضا قاطعا، ومنحه أبي مبلغا للانصراف بالحُسنى، ظنا أن الأمر سينتهي، إلا أنه توجه إلى متصرف اللواء؛ لتقديم شكوى ضدي بعدها بعشرة أيام.

تلقيت اتصالا هاتفيا من مكتب المتصرف، يستدعيني فيه للحضور ذهبت على الفور... أخبرني المتصرف أن هُناك ادعاء وشكوى بحقي من نفس الشخص يطالبني فيها بعشرين دينارا، فقلت له: يا سيدي هذا الشخص لا أموال له في ذمتي، ومع ذلك سأدفع له المبلغ أمامك على أمل أن يكف عني بالقانون، وتم الدفع بناء على إيصال تسليم من مكتب المتصرف.

بعد ربع ساعة من الزمن اتصل أبي يقول لي: إنه سلم الشخص نفس المبلغ قبل يوم واحد فقط، رجعت حينها إلى المتصرف وأخبرته بما دار بيني وبين أبي؛ ليستدعي المشتكي مرة أخرى؛ وأقر أنه طلب من أبي مبلغا يشبه الذي تقدم به بشكواه.

طلب منه المتصرف أن يعيد لي المبلغ، لكنني أخبرته بأن هذا المبلغ مني لك، كيف تود أن تنهي الحديث بمظلمتك التي تدعيها أمام الناس؟ ليقول وخوفا من عقاب قد يفرضه المتصرف: انتهى الأمر بيننا.

يستوقفني الآن بحث هذا الشخص عن المال دون أي متاعب، بل بطرق ملتوية دون أي خبرة، دون أي تَحَرُكٍ صحيح منه كأي شاب يبحث عن لقمة عيشه بالحلال، حاول استغلالي عدة مرات بعد اللقاء في مكتب المتصرف، فسألته في مكالمة هاتفية هل لديك أي أموال في ذمتي؟ أجاب بالطبع لا وأنت تعلم ذلك، لكنني أريد التشهير بك فقط.

يريد التشهير ويهددني به دون أي أسباب تستدعي ذلك، وهو ما تعاطت معه الأجهزة الأمنية بفرض تعهد عليه، بعدم التعرض اللفظي لي بعدها، والتوقيع على أقواله: إن لا أموال له في ذمتي، واعترافه أن ما فعله كان مجرد تشهير لصورتي التي رفضت أن أقاضيه عليها بالقانون تاركا إياه لله وللزمن، ففيهم خير العوض وخير الجزاء.

لو أردنا الحديث هُنا عن هذه الأحداث؛ لتسائلنا لماذا يُجازى الخلوق بهذا النوع من التصرفات؟ هل أني أحمق عندما كنت واضحا وصادقا؟ أم أن هذه نتيجة ابتسامتنا الصادقة في وجوه بعض الناس؟

شيكات بلا رصيد...

ذات المشاهد كانت تستوقفني عندما كنا نقدم خدماتنا؛ لعملاء من بعض رجال الأعمال، ممن يوحون للناس أنهم أصحاب أموال طائلة، وأنهم وأنهم ...

هؤلاء بارعون بسحب دفتر الشيكات من جيوبهم بكُلّ ثقة أمام الناس؛ ليظهروا التغطية على نقص عجيب في نفوسهم وشخصياتهم، من خلال فرض صور وهمية على من حولهم، فاسم البنك ولون الشيك ونوعية القلم، تم اختيارها بعناية للحفاظ على البريستيج، لكن تجد أنها شيكات دون رصيد، عقوبتها العوض بوجه الكريم.

كما حدث لي في إحدى المرات، عندما تسلمت مبلغا نقديا كدفعة أولى من عقد تنفيذ لوحات إعلانية؛ لشركة في عَمّان، وباقي الحساب شيكات بنكية بمبلغ قدره الفا دينار، وعند قدوم موعد الشيكات لم أتفاجأ بعدم وجود رصيد، فهو أمر مُتوقع في خضم ما مررت به من تجارب... سلمت الشيكات لمحامٍ مُختص في القضايا المالية؛ وخمسين دينارا؛ كان قد طلبها ليقوم بالتصالح أو حل الخلاف مع صاحب الشيكات، وتحصيل حقي بالقانون الذي يجب أن يحاسب فيه صاحب الشيكات؛ لأنه فعلها وهو يعلم أن لا رصيد لديه في هذا الحساب، ولا يريد دفع الحق.

لكـن سـتتفاجئون حيـنما أخبـركم أن الخمسـين دينـار، كانـت أجـرة تكسـي لعـمان؛ لبيـع شـيكاتي للعميـل عـلى حسـابي، وأن المحـامي هـو مـن تقـاضى عـلى هـذه القضيـة، ونفـذ منهـا المخـالف الحقيقـي، وبقيـت أنا الضحيـة؛ حيـث تبـين بعـد سـنة مـن تاريخ توكيـل المحـامي بيعـه الشـيكات بمئـتي دينـار؛ لـذات العميـل وإنهـاء الأمـر دون علمـي، وإعطـائي الكثيـر مـن الوعـود أن المحكمـة سوف تتخذ الإجراء القانوني المناسب بحقه.

وهـو اعتـراف أدلاه المحـامي أمـام القـاضي الذي حـكم بيـني وبينـه، في محكمـة إربـد المـوقرة بعـد فـترة ليسـت بقصيرة، عِنـدها سـألني القـاضي: هـل تُسـامح بحقك الشخصي؟

قلت : لن أسامح بعد كل ما تلقيته من نتائج لست أنا السبب فيها.

كان الحـكم سـتة أشـهر بالسـجن لهـذا المحـامي، عـلى قضـيتي وعـدة قضـايا كان ارتكبهـا، وإيقافـه عـن مـزاولة مهنـة المحامـاة لفـترة لم أذكـر كمْ كانـت؛ لِيُحـال إلى السـجن بـدلا مـن صـاحب القضـية الأصـلي، الذي يُعتـبر ذكيـا بنظـري حيـنما قـرر محـامٍ وثقـت بـه إعفـاءه مـن دفـع المبلـغ، ومـن قضـية شـيكات بـلا رصيد، لكـن مـن وجهـة نظـر المحـامي مئـتي دينـار الآن، ولا يهم النتيجة فيما بعد، ولا حتى ظروف الموكل.

أحدهم وعند مطالبتي له ببقية حسابات تنفيذ مشروع له مختص بخدمة السيارات، قال أي حسابات؟ لقد سلمتك جميع المبالغ، قلت له: يوجد عقد وإيصالات تثبت ذلك، قال وبكل ثقة: أحضرها إن وجدت، عندها اكتشفت أنه قام بطريقة أو بأخرى بسرقة عقد التنفيذ، وكل ما يثبت ما بَينَنا من دفعات مالية.

بعد إقناعه بدفع المستحقات، اعترف أنه غافلني وأخذ مفاتيح المكتب ذات ليلة وأنا أعمل في مشروعه دون علمي، وأرسل ابنه إلى مكتبي وقام بسحب النُسخ وتسليمها لوالده، الذي كان يعلم مكان وجودها من خلال تواجده معي ذات مرة، عرف فيها مكان حقيبتي التي أحتفظ بها بالأوراق الرسمية والإيصالات والأختام.

ناهيك عن من حلف على كتاب الله أني تَسَلَمْتُ منه جميع حقوقي ولا شيء لي في ذمته؛ لأعود مكتفيا بما دفعه من دفعة تحت الحساب؛ لنبدأ بتنفيذ أعماله، التي كانت بمثابة رسالة لي، أن الطيبين والصادقين في عملهم ومواعيدهم قد يكونوا فريسة لمن خاب ظن ضميره وإنسانيته به.

تتشابه الأمور في كثير من الأحيان، وذلك ظنا مني أن بعض الناس تُشبهني بالالتزام، لكن أنا من يدفع الثمن، ويقرط الحصى في ليالي شتاء باردة بريح عاتية، أثناء تنفيذ أعمال لبعض الزبائن، وهم ينعمون بدفء بيوتهم ظنا مني أني سأحصل على رزقة لأولادي.

لا تستغربوا تكرار الأحداث، أنا مخطىء بنظركم أعي ذلك جيدا لكنني أعمل بجدية دون الالتفات إلى عُدماء الضمير؛ لأني لم أمتهن أسلوبهم يوما في حياتي؛ لذلك فاتتني الكثير من التوقعات التي كانت نتيجتها أن أكون ضحية أمام أناس همهم في هذه الحياة المال.

بعد وهلةٍ قصيرة من الزمن يتحول عنوان المؤسسة، وموقعها المميز إلى هدف لأحدهم، الذي حاور نفسه بامتلاك الموقع بطريقة ذكية، دون أن يتطرق للحديث معي أو مفاوضتي؛ لتسليمه المكان مقابل دفع مبلغ بدل الإخلاء، والانتقال إلى مكان آخر، بل ما كان منه إلا التصرف بحنكة قد فاتني فيها الكثير من الخبرات.

لا أمانع أن يصبح مقر مؤسستي أكبر وأوسع، لكن الشرط أن يبقى في نفس المنطقة؛ حيث أن عُملاء كثيرين إعتادو عليَّ فيه.

عرض عليَّ شخص آخر" لم أكن أعلم بأنه صديق مقرب لمن أراد مكاني لإنشاء مَقهى" أن يُعطيني مبنى بحجم ثلاثة أضعاف عما أنا فيه الآن وبفارق بسيط في الأجرة السنوية.

رغبتي بالتوسع حاضرة، ومستعد لها، فقبلت مباشرة وبدأتُ تجهيز المقر الجديد استعدادا للنقل، المكان واسع وأنا أدفع كل التكاليف بمشيئة الله، وسرعان ما انتهى تجهيز المكان وتركيب المعدات والأجهزة، إلا وأرى من المقر القديم مقهى يبدأ بسكب القهوة والشاي لزبائنه، دون أن أعلم أنها النهاية.

نيتي الصافية والتعامل بجدية مع الناس، والاعتراف بالخطأ لا يُعيبني فأنا وثقت بمالك المقر الجديد، وانتظرت لفترات طويلة عقد الإيجار على أمل أن وعوده صادقة والعقد جاهز، وسيحضره رغم أنه نسيه أكثر من مرة.

بعد ستة أشهر من العمل بالمقر الجديد، جاءني شخص غريب يسألني من الذي سلمك الموقع؟ قلت له : فلان، ضحك وقال: إنه ابني ولكن سأقاضيكم سوية بالقانون؛ ليتبين أنه قد خدعني وسلمني الموقع غير المرخص أصلا في بلدية إربد، ومخالف في ذات الوقت.

ما كان مني إلا الالتزام أدبيا وأخلاقيا والخروج بسلام من الموقع لأخسر الموقع القديم والجديد معا، بسبب تصديقي للناس وظنهم يشبهونني، وأخسر تكاليف باهظة قد دفعتها في سبيل تنفيذ ديكورات مميزة، وغيرها من أمور بروتوكول المؤسسات الحديثة.

عليَّ أن أغادر إلى أي مكان آخر، لكن خروجي من هذا الشارع أمر صَعُبَ أن أتقبله بسهولة، ما خَلّفَ حالة عصبية ومرضية، استمرت لفترة تجاوزت ثلاثة أشهر ألقت بي أرضا في النهاية؛ لأستفيق في مستشفى الأميرة بسمة في إربد، وأمام أطباء يستعدون لإجراء عملية الزائدة الدودية.

ونظرا لمعرفة ما أصابني من ضغط عصبي، ومعرفة ما أوصلني إلى هُنا لم أستجب لأي طبيب منهم للعملية، فهربت للخارج، وإذا بأبي يصل مع موعد هروبي، أعادني إلى الداخل مع محاولات بإقناعي بالعملية، إلا أنني بقيتُ مُصرّاً أن ما يصيبني لا علاقة له بالزائدة، وربما إرهاق وغضب فاستجابوا لي، مع البقاء تحت المراقبة، فلم أمانع وبقيت إلى أن تبين بعد تحليلات مخبرية وصور ومناظير عديدة، أن ما أعاني منه هو أمر مختلف فعلا.

إنها حالة مرضية أصابت المرارة والبنكرياس والجهاز الهضمي، الذي أنهكته السجائر والقهوة؛ ليستمر المبيت في المستشفى عدة أيام، كانت استراحة من زحام الفكر والإرهاق.

أبي وزوجتي وعمي قسيم، يحضرون لي دجاجة مشوية أُمنعُ من أكلها بسبب حالتي الصحية، وجريدة رسمية فيها إعلان عن وظيفة خارج الأردن، تناسب سيرتي الذاتية وخبراتي في الموسيقا العسكرية.. وضعني أبي تحت الاختيار ما بين إنهاء عملي كخطاط وصاحب مؤسسة لتنفيذ اللوحات الإعلانية، والجلوس بالبيت مع تكفُلِه بكل مصاريف معيشتي وهو أمر مرفوض قطعا بالنسبة لي، والخيار الثاني التقدم لذات الوظيفة.

الأمر يتطلب التفكير بروية ومعرفة شروط تلك الوظيفة في ذات الوقت، التي كان يعلم أحد من يدعي أنه صديقي المقرب فيها، وتقدم لها خِفية عني تجنبا من استبعادِه، لأن العمر المطلوب أصغر من عمره بكثير، تقدمت بالوظيفة مع العديد من الشُبان الذين وصلهم الإعلان وكان النصيب أن أقبل مع أول المتقدمين بحكم طلبهم لسن معينة من العمر، طابقت عمري.

إغلاق المؤسسة وإنهاء عهدها من سوق إربد قرار لم يكن بالسهل، ولا أستطيع وصفه، فحلمي الأكبر يحتضر، والتجربة الأخيرة مريرة، وثقتي بالناس تزداد بدلا من أن أكون حريصا أكثر، أحاول من تغير نفسي لأصبح أكثر حذرا من الناس، لكن لا حياة بمن تنادي .

الكثيرون من حولي أصبحوا بنفس اسمي، يصنعون اللوحات هُنا وهُناك، كأني كنت لهم بابا في هذا المجال، لكنها أرزاق من الله وليست مني، ولن تكون من أي أحد من البشر، وعلى الناس ألَّا يمتهنوا أذية الآخرين إن لم يكونوا حقيقيين.

منهم من يقول: إني أعمل لديه، ومنهم من قال: إن المؤسسة ملكه وأنا من يُديرها، ومنهم من قال: إنه أنشأها تحت اسمي وإدارتي، ولا يريد أن يعلم أحد من أقاربه أنه المالك الحقيقي، كُلّها دلائل بالغيرة من نجاحي ومن انتشار اسمي، أقولها ليس غرورا، إنما ثقتي بنفسي ومتاعبي لا تهون عليَّ بسرعة.

الهجرة واعتزال العمل الإعلاني...

خرجت من المؤسسة في آذار من عام ٢٠١٠، ولدي في ذمم الناس مبالغ مالية كبيرة، جُلّها شيكات بلا رصيد، وعقود منفذه من قبلي غير مدفوعة، وكنت مديونا لعديد من الأشخاص بذات الوقت.

كل هذه الأمور كانت محور حديثي مع أبي وزوجتي، الأمر الذي دعاني للتقدم للوظيفة، ونسيان التجربة التي اعتبرتها حلما تلاشى للأبد واعتبرها كثيرون فاشلة، لكنها بالنسبة لي لم تكن فاشلة فقط، بل تعلمت منها أن من يضحك لك وبحضورك، ليس شرطا أن يكون صادقا، ولا شرطا أنك عزيز عليه بالفعل، فهو ذاته يمكنه ذمك بغيابك.

من مشاهد الطعونات التي تعرضت لها، قيام أحد الأشخاص بدعوتي إلى سهرة مع الشباب من الأصدقاء، وحين وصلت بابهم سمعت أحدهم يتشمت بطريقة إغلاق المؤسسة، تابعت مسيري نحوهم وأخبرته أن بعضكم كان جزءاً من فشلي، حينما تستلف أنت وفلان وفلان من الجالسين مبالغ مالية مني ولم تعيدوها إلى الآن، مكتفيا بتلك الكلمات التي ربما لم تؤثر على أحد منهم.

قـررت السـفر بعـد قبـولي للوظيفـة، وخرجـت مـن سـوق إربـد بعـد سـنوات مـن بنـاء الحـلم الذي سرعـان مـا هُـدم بسـواعد الآخـرين وثقـتي بهـم، لا سـيما مَـن لي في ذمـتهم مبـالغ ماليـة، وكل مـن حـاول منعـي مـن العمـل؛ لعـدة زبائـن بحجـة أنهـم أصدقاؤه مـن قـبلي، ومـن حـاولوا منعـي مـن اسـتخدام اللـون الأصـفر، عـلى أسـاس أنهـم يسـتخدمونه مـن قـبلي، وهـو تطفل أنصفني فيه محافظ إربد آنذاك، وأوقفهم عند الكثير من الحدود.

لكـن حسـابنا يـوم الديـن عنـد عزيـز مقتـدر، ولـن أسـامح كُلّ مـن لي في ذمتـه شـيئا مـاديا، أو أذيـة معنويـة، مهـما كانـت شخصـيته أو علاقـتي بـه اللهـم فاشهد.

سلم الطائرة ودرجات الطموح...

الثامنة صباحا من الـ ٢٤ / نيسان / ٢٠١١

موعد سفري الأول في حياتي، وهي المرة الأولى التي أصل فيها مطار الملكة علياء الدولي كمسافر، والمرة الأولى التي سأصعد بها سلم الطائرة مغادرا بلدي، بحثا عن نفسي وطموحاتي في مكان آخر بين أناس جُدد.

الرحلة من صيدور إلى المطار... سفرا أرضيا بين الأقطار العاطفية، فيها تصفحت وجوه أناس كثر، وأماكن كثيرة وأحداث كثيرة، أعدت لعدة مرات تصفح ما تحمله حقيبتي من هموم وأوجاع وألم، على طموحات كُسِرَت دون إرادة مني، أتفقد بين الفينة والأخرى جواز سفري، تذكرة سفري، ساعة سفري، قناعاتي بسفري.

استوقفني مشط نسيته على الطاولة قبل أن أودع أمي ومرآتي وطفلتي الرضيعة ذات الستة أشهر، وطفلي ذو الأربعة أعوام، وعشيقتي وجدران بيتي وأهله بألم يقف أمام منعطف، ربما سيجعل من قلبي وبالي صافيان نوعا ما.

راودتني الرحلة باقتباس خاطرة بعنوان

السفر يختارنـــــــــــــــي ...

فقلـت بهـا : "هـا هـو السّـفر يختـارني غلبـني قـراري، اسـتعجل الموعـد ودّعـت حـدود قـريتي، أدركـت المطـار، سـلّمت الأمتعـة وختمـت جـوازاتي تبسّـمت المضـيفة، غلّقـت الأبـواب، شـدّت الأحزمـة، سحـب الدّرج، نادى المذياع بدعاء السّفر، أقلعت الطّائرة "

بعد صفنة استمرت ساعتين بين السماء والغيوم...

" المـذياع يعـود مـن جديـد بلحـن جديـد، لحـن مختلـف عـن لحـن الإقـلاع إنـه موعـد الهبـوط الاختيـاري، نسـمات هـواء مختلفـة في أرضـية مطـار مختلفة، وصلنا إلى الوجهة المقصودة حمدنا الله "

"سمينـا بالله، أعلنّـا دخـول حيـاة جديـدة، إثبـات الوجـود فيهـا أمـر مهـم، أمـر لا بُدّ منـه، هُنـا أنا سـأبدأ مـن جديـد، تكـوين علاقـات جديـدة، أختـار منهـا مـا يختـاره القلـب، أبـدأ برسـالة جديـدة فيهـا كل الأمـل، فيهـا كل اعتـزال عمّا مضى، فيها روح مختلفة عمّا كنت بالسّابق "

الثانية عشرة والنصف ظهرا من ذات التاريخ، محطتي الجديدة هي دولة الإمارات العربية المتحدة؛ لأستنشق هواءها في مطار "أبو ظبي" مع صوت أذان ظهرها، مُتجها إلى مدينة العين لاستكمال إجراءات تعييني، وتَسَلُمي لوظيفتي الجديدة في العاصمة "أبو ظبي" .

أقمت ومن قدموا معي بذات المهمة في مدينة العين نحو أربعين يوما لتجهيز أوراق التعيين الرسمي، ومرحلة الاستعداد لمباشرة عملي الذي سأُنقل على إثره إلى " أبو ظبي ".

مـرحلة تغيـرت فيهـا الكثيـر مـن طبـاعي السـابقة، وازددت هـدوءا عـما مضـى، وكأي شـاب يتغيـر عليـه مـكان إقامتـه وعيشـه، انتـابتني الكثيـر مـن المشـاعر، لكنـني سـلطت الضـوء عـلى عمـلي كموظـف جديـد في بـلد جديـدة، وعـليَّ إعـادة النظـر بمسـتقبلي الدراسي؛ لربمـا أحقـق مـن خـلاله شغفا ما أو طموحا ضاع سابقا.

قـررت البحـث عـن أي جامعـة تحتضـن تخصـص الإعـلام بحـكم امـتلاكي موهبـة صـوتية في الإلقـاء والقـراءة، وموهبـة بالكتابـة والتعبـير، الكثـير منّـا يعتقـد أن استشـارة صـديق أو قريـب وزميـل، قـد تكـون صـائبة، لكنهـا في الحقيقـة كانـت محبطـة، وضـد كُلّ مـا أفكـر فيـه، وأنا بطبيعـتي لا أرضى أن أصـاب بـأي نـوع مـن أنـواع الإحبـاط، علـيَّ أن أسـعى نحـو أي هـدف أرى منه صيبا نافعا في حياتي العملية.

يقـول لي أحـد الـزملاء: مـن يفكـر في الدراسـة في عمـر مثـل عمـرك؟ وكنـت حينهـا أبلـغ الثلاثـين، لا أنظـر إلى الـرقم هـو متقـدم مـن وجهـة نظـره لكـن المسـتقبل والحيـاة أمـام الجميـع، ممـن أرادوا اسـتغلالها بشـكل صحـيح وما نحتاجه منا هو التفكير المنطقي بأي خطوة نُقدم عليها

بدأت حينها بمراجعة العديد من الجامعات؛ بحثا عن هذا التخصص والذي كلما صادفت أحدا يقول لي: إنه طموحي الذي لم أحققه بسبب الظروف، معتقدين أنه يأتي إليهم دون أي مساع حقيقية.

المطبات والعثرات والحواجز متوقعة وحاصلة لا محالة، لكنني اعتدت أن كل عثرة تواجهني هي بمثابة محطة للاستراحة والبدء من جديد لعلي أتجاوز خلالها كل خطأ ورد في المحاولات السابقة، ولعله أيضا انطلاقة بشكل أفضل، فكان من استغلال تلك المواهب بابا لدراسة تخصص الصحافة والإعلام، والخوض في غمارها العملية.

عام **٢٠١٢** انتسبت لجامعة القاهرة، وقطعت بها شوطا طويلا من الدراسة لكن لم أكمل؛ لتضارب مواعيد دوامي الرئيس مع كثير من المحاضرات، لكنها لم تجبرني على الوقوف، وترك آخر طموح أمامي أود تحقيقه بقدر المستطاع.

ينقضي العام الأول في غربتي التي لم أشعر فيها إلا بغياب من أحب فالمسافة ما بين أبو ظبي وعَمّان ليست بطويلة، وزيارتها متاحة أي وقت، ما منحني حافزا ألّا أشعر بالغربة.

كان العام الأول تعارفا تاريخيا تراثيا جغرافيا، في بلد تحتضن بين طيات أيامها فعاليات ومناسبات، تسلط الضوء على موروثها الذي يشبه بطوابعه، الكثير من تراث المناطق الشرقية والجنوبية في الأردن.

كما أن التعايش مع أبناء جنسيات كثيرة في دولة الإمارات، والتطور التكنولوجي والعلمي السريعين فيها، أوجب الاجتهاد بتعلم ودراسة اللغة الإنجليزية، التي استطعت تقويتها بنسبة كبيرة مقارنة عما سبق لندرة استخدامها في الأردن.

في إجازتنا الأولى إلى قريتي برا من أبو ظبي إلى السعودية، ومنها إلى حدود العمري، الحد الأخير بين الأردن والسعودية، بدأنا بتجهيز سياراتنا لتلك الرحلة الطويلة، التي تتزامن مع نهاية شهر رمضان لعام **٢٠١٢**، ومع حر آب اللهاب أيضا.

اعتذر العديد ممن لا يملكون سيارات في ذلك الوقت عن مرافقتي حجة أنهم لا يعرفون أي شيء عن خبراتي في السياقة والسفر برا، إلا أن أحدهم قال: إني غير مستعد للإجازة، وعلى الرغم من ذلك سأرافقك.

الأربعاء الموافق للخامس عشر من آب للعام ٢٠١٢

في تمام الرابعة مساءً، تبدأ رحلتي من" شارع المرور" في أبو ظبي باتجاه قريتي صيدور، بكل يُسرٍ من الله، مع تحذيري من باقي الفريق، بعدم السرعة والبقاء ملتزما بخط السير معهم، تجنبا لإضاعة الطريق أو الحوادث، أو تعطل السيارة التي وصفوها بالقديمة البالية، كُلّ يصف حسبما شاء، والواقع أحيانا بعيدا عن العديد من تلك الأوصاف.

الرحلة لم تطل كما يعتقد البعض، ولم تكن صعبة كما تخيلوا، بل كانت الرحلة بمسير يمتد من باب بيتي في أبو ظبي إلى باب بيتي في صيدور بعد مسير ألفين وست مئة وأربعة وعشرين كيلو مترا، شيقة وممتعة لأبعد حد قد أوصفها به.

مررنا بكثير من المدن السعودية الجميلة، في ليلة كاملة ونهار كامل التقطت بها أجمل صور الشروق والغروب، قرأت عبر لوحات الطرق مئات الأسماء من المدن السعودية وضواحيها.

لفتتني بشكل كبير منطقة القريات القريبة من الحدود الأردنية، كانت جميلة جدا، وتشبه بمعالمها وأسواقها مدينة إربد، التي وصلتها بعد مسير استمر أربع وثلاثين ساعة متواصلة، من ضمنها توصيل زميلي إلى مدينة جرش عبر طريق الزرقاء؛ لأصل بيتي في صيدور تمام الساعة الثانية صباحا من يوم الجمعة.

مسجلا بذلك أول وصول من بين قافلة زملاء تتكون من اثنتي عشرة سيارة بأربعة وعشرين شخصا، وصل بعضهم بعدي بيوم، وبعضهم بيومين، نتيجة ما مروا به من ظروف عطلت سيرهم، قد عُفيت منها في رحلتي التي كانت بنظرهم صعبة وخطيرة، وتحتاج لبقائي برفقتهم حرصا منهم عليَّ؛ نظرا لقدم سيارتي وقلة خبرتي في كثير من الأمور.

تبدأ الإجازة الأولى برا في الأردن ببداية عيد الفطر، وبزيارة مناطق عديدة في بلدي كنت قد حرمت نفسي من زيارتها، بسبب انشغالاتي وحصر حياتي وأيامي في عملي فقط، تأخذنا الحياة العملية في كثير من الأحيان من جماليات ومن مناسبات كثيرة، وقد تبعدنا قليلا عن من نُحُب.

إجازة المغترب في كثير من الأحيان تتزامن مع عطلة المدارس الصيفية، والعديد من مناسبات الأفراح والاحتفالات، وكلها كانت تعيد لي ذكريات طفولة جميلة في قرية جميلة، بين أناس جميلين بأرواحهم، رقيقين بإحساسهم، متعاطفين متعاضدين فيما بينهم.

تنتهي الإجازة، ويجب لملمة كل شيء حولي من مشاعر وأمتعة وسلامات لمن بقوا ورائي؛ استعدادا للعودة حيث أتيت في أبو ظبي وكان القرار فور الوصول هو التفكير بتغير مسار حياتي السابق كاملا مع حفاظي على وظيفتي، لأصبح شخصية جديدة أصنع من خلالها شيء يرضيني ويلبي احتياجات عائلتي.

الطموح واليأس لا يلتقيان، فلكل مجتهد نصيب مما أراد، وأنا على يقين تام أن الهدف موجود، وعليَّ أن أصوب جهودي نحوه بكل ما أستطيع من قوة، معتمدا بذلك على اكتساب الخبرات من وسائل الإعلام دون أن أكمل مسيرتي الدراسية بأي جامعة كانت.

وهو ما كان سببا لتوجيه البعض كلاما لي، مفاده كيف تصبح مذيعا أو معلقا صوتيا، أو صحفيا دون شهادة جامعية بتخصص الإعلام؟ أسئلة كثيرة ظنوا فيها تراجعي عن خططي محبطًا، لكنها زادتني إصرارا على الوصول إلى ما أنا به من خبرة طويلة، استطعت من خلالها إثبات وجودي في العديد من المجالات في الإعلام، مكتفيا بشهادة الثانوية العامة الأردنية التي أحرزتها عام **٢٠٠٠**

كان من الواجب متابعة تخصصي في الإعلام، ولا بد من البحث عن وسيلة إعلامية أبدأ فيها بالتطبيق العملي، وسرعان ما تيسر الأمر بتوفيق من الله؛ لأعمل في قناة فضائية في أبو ظبي، وكان اسمها قناة المدار الإخبارية، عملت بها حوالي السنة دون أي راتب بهدف الدخول في مجال التحرير الصحفي والإخباري، وصناعة التقارير التلفزيونية.

العديد ممن يدّعون أني صديق لهم، ومقرب منهم وعزيز عليهم، حاولوا إقناعي أن مجال الإعلام لا يليق بي، لحجج لم يُعلنوها أمامي على الرغم من مدحهم لكتاباتي عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وإعجابهم بخامة صوتي مرارا.

في المقابل، العديد من زملائي الجدد في المجال والمسؤولين في قناة المدار منحني فرصة كبيرة؛ ليساند طموحي الجديد، فمنهم من كان أستاذي في التحرير الصحفي واللغة العربية والتدقيق اللغوي، وآخر أستاذي في قراءة التقارير ومونتاجها بحرفية عالية.

بهمة العديد من الأوفياء، أصبحت قادرا على صناعة الخبر والتقرير والتعليق الصوتي والمونتاج التلفزيوني، وهو ما سمح لي أن أكمل فترة طويلة في مكان وظيفتي الأصلية في قسم الإعلام، حتى نهاية العام **٢٠١٤**

مع بداية الشهر الأول من عام **٢٠١٥**، انتقلت للعمل كمنتج برامج تلفزيونية في تلفزيون الشرقية من كلباء، التابع لتلفزيون الشارقة وواظبت حينها على كتابة المقالات الصحفية في العديد من الصحف الإماراتية، وعملت معلقا صوتيا لدى بعض شركات الإنتاج الإعلامي وصاحب صوت إعلاني، في الكثير من إعلانات الإذاعات في دولة الإمارات.

من قنــاة "الشــرقية مــن كلبــاء" بـدأت رسميـا تسـجيل دخـول جديـد في حيــاة إعلاميــة، اســتطعت خلالهــا نســيان كُلّ التجــارب القديمــة بغــض النظـر عـما خلفتـه في نفسـي مـن سـعادة أو ألم، فهـي أيام كغيرهـا تمضـي وتصـبح ذكـريات ربمـا ينسـاها الجميع إلا أنا، لكـن أهم مـا فيهـا أن هــذه حيــاتي الــتي أود أن أحياهــا بعيــدا عــن أي تشويشــات، قــد أتســبب بهــا لنفسي أو لغيري.

غــادرت إمــارة أبــو ظــبي متوجهــا لإمــارة الشــارقة، ومنهــا إلى مدينــة كلبــاء في الجــزء الشــرقي لدولة الإمــارات؛ لأعمــل منــتج بــرنامج صــباح الشـرقية ومعلقـا صـوتيا في قنـاة الشـرقية مـن كلبـاء، الـتي أقمـت بهـا لمدة عـام كامـل، اعتبرتـه مـن أجمـل الأيام في الدولة؛ حيـث كانـت مدينـة كلبـاء القريبـة مـن الحـدود مع سـلطنة عُمّـان، مدينـة جميلة يحتضنها البحـر مـن كل اتجاه، وكانت أيضا قريبة من إمارة الفُجيرة.

بعــد عــام واحــد مــن عملــي في قنــاة الشــرقية، عــاودت العمــل في العاصمــة أبــو ظــبي بإحــدى الشــبكات التلفزيونيــة، محــررا صحفيّــا، ومنــتج أخبــار سياســية، ومــذيع أخبــار إذاعيــة ومعلقــا صــوتيا، برفقــة عــدد مــن الــزملاء الذيــن عملــت معهــم في تلفزيــوني" المــدار والشــرقية مــن كلبــاء"؛ لنسطر بذلك أجمل قصص المحبة والإخاء فيما بيننا.

تسارع الأيام وتلاشي الملامح الأصلية...

منح تسارع الأيام تغيرا واضحا لملامحي خلال فترة قصيرة، وطال جزء كبير من شعر رأسي، أدركت حينها أن المشط الذي نسيته ذات زمن هو آخر مشط يمشط شعر رأسي في صيدور، وأن نسيانه يرتبط بالكثير من المشاعر، كلما تذكرت المرآة ومن تزين بها بعدي.

حينها شعرت أن الغربة هي غربة الروح، وليس الجسد، فكتبت قائلا:
كنت محقّا عندما نسيت ذلك المشط على طاولة أمي
لم أكن أعلم أنّ الغربة سوف تجتزّ ما تبقى في الرّأس من شعر كنت جازما أني سأعود برغم ما تأخذه مني اللّيالي والسّنين
سرت على درب كنت أظنّها قصيرة
وما لبثت أن أتمالك نفسي إلا وعشر قد مضت، مضت دونما إذن أو شعور بل أسرّعت بالهرولة والعد، هأنا أنا قد بدأت بعشر جُدد
أخشى أن أكون فيها من الذكريات القديمة في قريتي القريبة من سهول حوران
فلي بها أحبّة أشتاق إليهم دون أن أفقد العنوان
وأخشى أن أنسى لون ذلك الحبل، الذي يجلب عذب الماء من بئر الحيّ المجاور؛ لشجر الزيتون والرّمان
يسرع الزّمان... نعم يسرع وتتغير ملامح النّاس في كلّ مكان.

تنقضي العشر سنين دون استئذان مني أو من أي إنسان، فاليوم أربع وعشرون ساعة بغض النظر عن أي أحداث قد تمر بنا في الغربة، نتلقى أخبارا سعيدة وأخبارا مؤلمة، وغيرها تخطف الأنفاس وتحجب الرؤية عن أي شيء في الفضاء الواسع.

تتنوع الأحداث بين الفينة والأخرى، وأصعب تلك الأحداث هي التي لن يكون بمقدورك تغيرها أو حتى المشاركة فيها بحكم أشياء كثيرة لكنك قد تشتاق لكل كبيرة وصغيرة في بلدك، ولجميع الأشخاص حتى ممن كان بينك وبينهم خلاف ما، فالشوق لا تعرف متى تشتد وتيرته

تأتي الأيام دون إذن كتلك التي ترحل دون إذن، الشكل يبدأ بالتغير والشعر لم يعد أسودا كما كان، وربما قد يبدأ بالتلاشي من أهم أجزاء الرأس، فللعمر مجار عديدة لا بُدّ أن يمر منها.

المغص والخوف من أي حالة عُطاس...

الخامس والعشرون / أيار / عام ٢٠٢٠ ثاني أيام عيد الفطر

والعالم أجمع أسير لجائحة كورونا اللعينة، يبدأ صباحي بغباش لا أستطيع وصفه، كل ما هو أمامي هاتف محمول، أقدم بمكالمات قصيرة تهنئات العيد؛ لبعض الأقارب والأصدقاء والزملاء.

اليوم ليس ككُلّ يوم، هناك شيء يدور بي كما يشاء دون أي تحكم مني، كل ما ظننته أنه دوار أو مغصة برد، والأمور بحناياها معطيات صعب تجاوزها دون طبيب، وحظر التجول بسبب تداعيات الجائحة ليس بالسهل، لكنني أمتلك تصريحا للخروج بحكم عملي في مؤسسة إعلامية، جعل وصولي إلى المستشفى أسهل من لو كنت دون تصريح.

الكثير من الحالات المرضية في قد سبقتني، وعليَّ الانتظار بالرغم مما أعاني، وكنت أظنه الشيء السهل الذي ربما ينقضي سريعا في أي ساعة من هذه الليلة... أطباء منشغلون وممرضون يتكممون خوفا من أي حالة عُطاس قد تحدث في المكان، فنحن أمام جائحة مُعقدة في بداياتها، وكُلّ عضو في المجال الصحي، حريص على نفسه كما حرصه على الآخرين، ومقابلة الطبيب ليست بالسهلة أيضا، فهو أمام قاعات مزدحمة بالبشر، وكل منهم لديه ما يرهقه من أمر ألم به.

صيدلاني يعرض عليَّ حبة مسكن للمغص؛ وأصبحت بعدها بخمس دقائق بلا أي آلام، وهي إشارة بالمغادرة والعودة إلى البيت وكأن شيئا لم يكن؛ لأصبح في اليوم التالي على موعد أصعب مما كان في الأمس

هُنا وجب التحري قدر المستطاع... الألم مضاعف وشحوب الوجه كُلّ يقرؤه بطريقته، منهم من يواسيني بمغصة برد وستنقضي سريعا، ومنهم من يسارع بإخباري عليك زيارة الطبيب، وهو الأمر الذي لم أتوان لحظة عنه لأسباب كثيرة.

برفقة صديق مقرب أفنى أياما من وقته في سبيل البقاء جانبي، منحني الطبيب قليلا من الدواء مع السماح لي بمغادرة المستشفى على أنها حالة عرضية، ولكن ما لبثت أن أصل مخرج قسم الطوارئ، إلا وأجد نفسي في انهيار جسدي لم تكن مَعرِفَةُ أسبابه سهلة؛ لذا سيكون الكثير من التحاليل والإبر بانتظاري، التحليل الأول يتطلب مني شرب كمية كبيرة من الماء المسبوغ قبله، لكن الفرصة بارتشاف الماء ضعيفة جدا في وقت يزداد به الألم، ولا مفر من ذلك الماء قبل التحليل الذي رأيت به نفسي في طريق لا أعلم أين نهايتها ومتى؟

انتهت كمية الماء... وبدأ التحليل المرتقب، والذي يستغرق أربعين دقيقة داخل جهاز الأمراي القريب من جهاز الرنين المغناطيسي، وستخبرني الطبيبة المختصة التي تم استدعاؤها من استراحتها، من أجل الإشراف على ذلك التحليل بكُلّ النتائج.

النتائج تقول إن صحتي في منحنى خطير، وهي بداية التوهان في كل الأمور الحياتية الخاصة بي، فوزني حينها يفوق مئة كيلو غرام وستُحجَب الكثير من الأطعمة عني، بسبب التهاب مزمن أنهك جزءا من البنكرياس.

لا بأس، فهي حكمة القدر وإرادة رب العالمين، أي دواء يصرف مهما كانت فاعليته في تسكين الآلام تبقى كلمة "وضعك الصحي" لم يعد كما في السابق، هي أقوى من كل دواء، وأقوى من أي كلمة قد تخفف أوجاعا نفسية ومعنوية.

الحلـول مـا زالـت مجهـولة، والـوزن بتنـاقص سريـع، وهـذا مـن أبسـط الأعـراض، إذ يـؤثر ضمـور البنكـرياس عـلى عمليـة الهضـم وعـلى فـرز الأنسـولين للجسـم، لكـن القـوة والأمـل بالله، قـد يمنحـان الإنسـان يومـا خاليا من التفكير والمتاعب، حتى بوجود بعض الآلام.

أحد الأطباء يقرر عمليـة؛ لتنظيـف البنكـرياس مما أصابه مـن حصـى قـد تكدسـت داخـل قناتـه عـلى مـر الأزمـان، وطبيـب آخـر يقـول أنـت قريـب مـن مـرض سرطـان البنكـرياس، مؤكـدا أنـه لـن يمهلـني كثـيرا؛ لتخـتلط الأمور ببعضها أكثر من أي وقت مضى.

الصحة غاليـة بـلا شـك، لكـن الهـروب مـن المستشـفى هـو أسرع حـل لتنـاسي مـا يخـبرني بـه الطبيـب، وإن كان مخطئـا بتحلـيله أو بتفسـيره للأمـر، فـأنا أدخـل بحـالة مـن التوهـان أفقـدتني اتـزاني؛ لدرجـة أني ذهبـت إلى العمل بدلا من البيت، علما أنني مجاز تلك الفترة.

ربّ أخ لك لم تلده أمك، هذا الإنسان لا نعرف متى يأتي، ولا نعلم ما هي صلة القرابة بيننا وبينه، وربما نكون قد نراه للمرة الأولى في حياتنا، شخص بمقتبل العمر تعرفت عليه منذ فترة وجيزة، يسألني وصدفة ما سر شحوب وجهك بهذا الشكل، فما كان مني إلا أن أتلو عليه ما حدث، وما أصابني من خلل بتوازن جسدي وأفكاري.

التدخل الحقيقي لمن يريد أن يكون سندا لك، لا يحتاج لإذن منك فهو يتصرف نيابة عنك دون أي استشارة؛ لأن الأمر من وجهة نظره لا يحتمل أي انتظار؛ خصوصا إذا رافق الموقف رجفة في الصوت، بمثابة إشارة أنك شخص موجوع من الأعماق، فكان التصرف الحقيقي بنقلي إلى المستشفى فورا دون مراجعة أي حدث.

عند الوصول، سأله الطبيب الذي كان قد اتصل به قبل أن نسجل الدخول، كيف يعيش هذا المريض خارج المستشفى وهو في هذه الحالة؟ وكأن السؤال يؤكد ما قاله طبيب الأمس، والأطباء قادرون على قراءة الكثير من العلامات من لون البشرة ومن لون العيون، فهُم أهل الخبرة والاختصاص.

لا أنكر حجم القلق في تلك اللحظات، لكن يبدو أنه سيطلب الكثير من التحليلات، ولديه الكثير من الأسئلة التي يمكن ألا تسمح لي حالة التوتر بالإجابة عنها، لكن قدر الله ما شاء فعل، ويجب البدء من جديد، واضعا تأثيرات ضعف البنكرياس على الجسم من ناحية فرز الأنسولين الخاص بالسكر في المقدمة؛ ليكون هو بداية تلك التحليلات التي تؤكد أن كل ما أصابني هو ضعف البنكرياس بفرز تلك المادة، لكن البديل موجود ما قد يوفر فرصة؛ لإعادة النظر بحالة التوتر التي لم تدعني وشأني فترة طويلة.

بدأت التحليلات، وبدأ الألم بالتلاشي أولا بأول، لكن يجب إجراء عملية؛ لاستخراج كمية من الرمل التي تتسكع بالقناة الصفراية وإعادة ترميمها؛ لتكون بداية في حياة جديدة من خلال رحلة علاجية دخيلة على حياتي، وقد تحتاج إلى ثمانية عشر شهرا حسبما قال الطبيب.

شاء الله سبحانه وتعالى أن تتغير الكثير من الأمور في نفسي وصحتي، ولله الحمد بعد إجراء أول عملية بدأت الصحة تتعود أدراجها شيئا فشيئا؛ لتنقضي معها مسيرة الثمانية عشر شهرا بكل سهولة، بعد رحمة من الله عز وجل.

تـلك المسـيرة رافقـني بهـا ذلك الشـاب، الذي تـذكرت أنـني لا أعـرف مـن اسمـه حـتى الآن سـوى الأول، وعنـدما سـألته تفاجـأ أكـثر مـني، ربمـا أنسـاني مـا أصـابني مـن توهـان الكثـير مـن الأمـور، علما بطـول الفـترة الـتي قضاها بالقرب مني.

دخـول المستشـفى فـترة طـويلة، وثـلاث عمليـات تمـت بوجـوده وبمرافقتـه واهتمامـه دون أي كلـل، بـل عـلى العكـس، كُلّ مـا كان يقدمـه لأجـلي يشعرني أنه مُقصر ولم يقم بشيء.

نحتـاج في أحيـان كثـيرة لنظافـة هـذه القلـوب، الـتي تعطـي دون أي مصلحة أو بديل أو مقابل، إنما إنسانية تربت في الوجدان.

جميلة هي دولة الإمارات بمدنها السبعة التي تحتضن طابعا تراثيا جميلا رسم على أجمل بقعة في الجزيرة العربية، النظام والقانون العادل من أبرز ما قد يحفزك على العيش في دولة بنت نفسها بنفسها في عقود قليلة من الزمن؛ لتقف في مصاف الدول الأكثر تطورا وتقدما في العالم.

الترحال من أبو ظبي إلى الفجيرة أو رأس الخيمة، أمر ممتع جدا لا سيما في فصول الخريف والشتاء، التي غالبا ما تكون بها درجات الحرارة في مستويات توفر أجواء لا مثيل لها، جئتها ضيفا وموظفا وسائحا ورحالة، فيها من الأمن الكثير، وفيها من الخير الوفير، ومن صناعة النفس والذات الفرص الكثيرة.

عملت بها موسيقيا وإعلاميا وكاتبا صحفيا في عدة صحف وفي العديد من المحطات الإذاعية والفضائية، ومنتج برامج محلية أتاحت لي فرصة اكتساب الكثير من تراث وعادات هذا البلد، الذي لا يفرق بقوانينه وأنظمته، بين ابنه والمقيم على أرضه.

تمضي السنوات تاركة خلفها الكثير من الحكايات والكثير من الراحلين والقادمين، تنقضي العشر سنوات من عمر إقامتي في دولة الإمارات وهي سنوات تغيرت معها ملامح الوجه والمكان، لا شيء يبقى كما كان عليه، يكبر أفراد أسرتي ويزداد عددهم، تتغير كذلك ملامح بلدتي وتشيخ حجارتها وتفتقد مع الأيام أكبر بواكيرها، وتخلو بعض طراحات البيوت من جُلاسها، مسجلة حضورا وغياب، غياب من رحلوا وحضور من ولدوا، ودَعْنا الكثيرين واستقبلنا آخرين بحكم سُنِن الحياة.

إجازتي للأردن في نهاية السنة العاشرة من اغترابي، تزامنت وبنية مني مع يوم ماطر، تلتقي فيه سحب المطر مع سحابات شوقي للأهل والأحبة والمكان، فلي بكل جزء منها ذكرى مخلدة لاتنسى، الإجازة قصيرة لكنها عنت لي الكثير بعد غياب ما يقرب من أربع سنوات، نتيجة جائحة كورونا التي أجبرتنا على تغيير الكثير مما اعتدنا عليه، وكذلك مروري بحالة صحية صعبة، تجاوزتها بعد مرور عام ونصف من وقوعها.

وصلت مطار الملكة علياء في التاسعة صباحا من يوم الجمعة" العاشر من كانون الأول لعام **٢٠٢١**"، تنفست هواء عَمّان بعد غياب عنها وعن إخوتي الذين استقبلوني هُناك بشوق ورحابة صدر، أنستني مسافة الطريق من المطار إلى إربد.

وصلت صيدور في الواحدة ظهرا، قبلت أبي بحضرة شجرة الليمون وكُلّ أحفاده ممن قدموا على هذه الدنيا في غيابي، عانقت أمي، وشربت كوب شاي صنع من ماء بئرها وميرمية حديقتها.

اختطفت برفقة أبي لحظات ليست بالقصيرة من تلك الإجازة، تجولنا خلالها في مدينة إربد وأسواقها قاصدين مدينة حواره؛ لشراء خراف لإقامة مأدبة عشاء بمناسبة شفائي مما أصابني.

كانت الجولة برعاية غيوم تحبس أمطارها في غياهب الأجواء الباردة، وازدحام الأنفاس والأصوات خلف كمامات فرضتها جائحة كورونا، التي ربما قد حرمتنا من جزء كبير من عطر مدينة إربد ورائحة شوارعها الشريكة الأكبر؛ لرائحة المطر العابق بريح البُن والقهوة والفحم وعطور وأعشاب العطارين.

جميلة صيدور حينما بدأت تخضر تلالها مرتوية بما أنزله السحاب من مطر، كُلّما عاكستها خيوط الشمس كُلّما ازدادت رونقا، كأنها فتاة تكتسي ثوبا جديدا، يُبَخَرُ برائحة دخان المواقد... حال التلال في قريتي هو حال مناطق كثيرة في محيطها، وطريق الأغوار العابرة منها طريق رفيعة إلى قرية صما.

تلك الأركان زادت من معالم البلدة خطوطا ربيعية يافعة، تجعل من الهم سكينة وتلاشيا طبيعيا، مع كل نسمة هواء تلامس الصدور المتأملة بعظمة الخالق، التي شقها بين الجبال؛ لتجسد جمال الطبيعة وروعتها.

ما بين عام ٢٠١١ وعام ٢٠٢١ عشرة أعوام غابت فيها الكثير من ملامحي عن أهل قريتي، وغابت ملامح الكثيرين منهم عني لكن بقيت أصواتهم كصوتي، دليلا على أننا كُنا هُنا، ومازلنا هُنا.

كذلك الحال هو في مدينة إربد، الكثير من ملامحها قد تغيرت بعد سنوات الاغتراب، منها ما تبدل ومنها ما هُدِمْ، ومنها ما ألغي من قواميس المدينة ومعالمها.

في ذات الوقت، غاب عن المشهد في مدينة إربد الكثير من الأسماء المشهورة في أسواقها، فعاتبتها معتذرا منها على الجفاء قائلا :
أسواقنا .. ما الذي أصابها ؟
بالأمس كانت تعج بالمتسوقين، والباعة، والباعة المتجولين
بالزوار، وبالتجار أيضا... يجوبون سوق الحميدية والبخارية
أين صوت أبي العبد الزرعيني بديناري الكتاب ؟

أين رائحة الفستق، ورائحة الخبز بباب ياسين الفوال، وبقع الزيت في ورق الفلافل؟

أسواقنا مالذي أصابها؟
وكم الساعة الآن على دوارها؟ ما الجديد من المنوعات بكستات تسجيلات الأبراج وصوت الخليج؟

ماذا عن صافرة رقباء السير؟ هل ما زالت تصدح بمحيط دوار وصفي التل، وإشارة شارع الهاشمي؟ ويطرب لها الجالسون في حلويات العفوري، ومطعم طلفاحْ، والمارون من أمام بضائع أبي السميد؟

أين أصوات مصبات العرقسوس، والتمر الهندي على عربة أبو طارق بمجمع الغور القديم؟ آه نسيت، رحلت إلى مجمع الغور الجديد، مقابل باصات صما والطيبه وسموع

كيف هي حال شارع فلسطين؟ ومحمصة الكردي، وشارع الرشيد وعوامة أبي عمر، وهرايس فوزي السلطي، وكيف تحبون كرابيج الحلب، بقطر أو بدون؟

أسواقنا ما الذي أصابها؟

لم لم تعدْ تحب السهر؟ ولا في ليلة العيد تسهر، بُحَ صوت من نادى دينارين دينارين، حلو العيد بدينارين، تلاشت رائحة الكمون، وقلت العجوة بكعكة الأساور

لماذا خف دخان الأراجيل في مقهى الكمال؟ وهدأتْ أصوات مرتاديها من المثقفين والرياضيين والصحفيين؟

هل ما زالتْ الأربع بلايز في البالة بدينار؟ والحذاء الإيطالي الأصلي بثلاث؟

و الفتيات تختار محابس الخطوبة، من مجوهرات الزعبي، والهزايمه أو الحواري، وأم العروس، تقلب الأقمشة في محلات الزيتاوي، أو الشيخ سالم

والعريس يستنشق العطور من ابن العطار، أو الحيفاوي، ويوقع كمبيالاته لبابا لويسي، عذرا أسواقنا... فعليك سلام، وعلى الجفاء سامحينا.

في رحلة العودة من تلك الإجازة التي اعتبرتها من أجمل أيام حياتي وعلى متن طائرة للملكية الأردنية، تقل مسافرين قادمين لأبو ظبي لأول مرة، وعائدين مثلي إلى عملهم ومقر إقاماتهم، كان مقعدي.

الرحلة ثلاث ساعات متواصلة، أحاول فيها غمض العين قليلا؛ لأنسى رجفات يدي، وهي تودع أمي وأبي على درجات البيت المطلة على جبال أم قيس، إلا أنني مع كل غمضة أعود إلى حيث أتيت، إلى صيدور وإربد مرورا بكفر أسد وإشارة كفر عان.

أتقلب بين كوب قهوة أهداني إياه أخي محمد من كشك قهوة في منطقة جُمحا، وبين صوت عمي قسيم الذي رافقنا إلى المطار، إلا أن كل اللحظات تعيدني إلى حاضنة قريتي "لواء الوسطية" بخضرة تلالها وعُنفوان أمطارها، مررت على كل قرى اللواء، وتذكرت الأحبة والأصدقاء فكتبت بهم مغناة تقول:

يارابع بين جبايل تخضّرت عقب مطراني
وسيط توسط بين شرقها وعز العرباني
سبع القرايا بابها ساريا بأول كفرعاني
فيها بنى غرايبي وصوالحا وكل رحباني
يسري بطريق فيها حوفا اللوز والرماني

من الطواها واللبابنه لمعت طيب المعاني
لاتنسى بقميم قيمْها نار للخير وارصاني
خراشقي ورواشده لزين الود وافراح دعاني
رسّمْ بالزود قزاقزي لا ناسب حفايد عثماني
من زينها زيّن الطيب رفوق مقبلاني
علم حطين وقرطاسها زخرف بعزام عنواني
يبرق بشارع الستين طيب لخيار قماني
سقت فرسان كفراسد واطرافها حرف وايماني
تخرج منها عمري ومراشده حوري بحلاني
لهم بابن مهيد والخطيب رفيق وخلاني
لازرت الخراج فيها طراد للخيلْ عشقاني
قابلت لياليها صما والغور بجرادات ووادياني
شومر صيدور لافاح بربيعها رسا بوجداني
غنت لها البشايره زفات رافقت فرساني
حرحشي لا عدّا بير الذهب روى البستاني
عانق شلول وسير فيه شعر والحاني
انعم بالوسيط بين كل خير ووزاني
عواوده وزيتوني بينهم هزت زين الاماني
سَن الرمح غنيمات ورباعي زيان المعاني
ارمي همك لاصار برجاجيل سيفها لساني

هدت نسايم الخريف بأطراف مناع الازياني
عانقت رياح الشتاء ديوان وأسوار ريشاني
مطارنه تزهد بجود الأجواد ورشّا عطراني
لامالت الريح فاح بينهم حب المطلقاني
خربة مرشد رفرف دحنونها طيب ورفعاني
قطف منها الدراوشة هدية فيها ورقاني
بواعنه لاجاوا منها سنابل لبها صخراني
دعت دار ال سميرات كل حموري وخفجاني
من ابو الفول للعمرات زين الاسم لايقاني
ذنيبات وشاكوش سقا الزيتاوي طيب منعاني
يارابعا بين جبايل تخضرت عقب مطراني
وسيط توسطْ بين شرقها وعز العرباني
سبع القرايا فيها بشيري خاوا عزماني
محرابها بصيدور وبابها ساريا بأول كفرعاني

وصلت إلى مدينتي ومقر إقامتي "أبوظبي" بعد مسير ساعتين من صيدور إلى مطار الملكة علياء في عَمّان، ومنها إقلاع استمر ثلاث ساعات للوصول إلى أبو ظبي؛ لأتابع رسالتي التي تقول إن هناك عائلة في ذمتي أسعى؛ لأن تكون مكملة للمجتمع بكُلّ ما تحمله من معاني الأخلاق والعلم، والتربية الصالحة.

في أجـواء الغربـة الـتي فـاتني بهـا الكثيـر مـن أمطـار الشـتاء في بـلدي والعديـد مـن الأحـداث الربيعيـة والخريفيـة والصـيفية أيضـا، ألقـت أقـلامي بحبرهـا مسترسـلة بـكل مـا يحـوي القلـب مـن ذكـريات امتـدت؛ لأكثـر مـن خمسـة وثلاثـين عامـا مع مـن أحـب، ومـع مـن رحلـوا تاركـين صـوتهم هويـة سمعيـة لنـا، أقـول لهـم أنـتم أحيـاء مـا بـين ذكرياتنـا ودعواتنـا مـا دمنـا نحيـا ونتنفس.

بين بيـر الذّهـب وبئـر أمي، قصـة وقريـة لم تخـفِ حداثـة أول عشـرين عامـا مـن القـرن الواحـد والعشـرين أيا مـن معالمهـا القديمـة، ولم تثنهـا الحداثـة عـن إنجاب أجيال تصارع القلم والمحراث، والعلم وحب الأرض.

نجـت معـالم القريـة ممـا أحدثتـه الطبيعـة مـن تغيـرات عبـر أكـثر مـن ألفـي عـام؛ لتبقـى قريبـة ممـا كانـت عليـه في حقبـة الرومـان، الـتي كانـت تتخـذ مـن القريـة بابا جانبيـا لهـا، ومسـاكن؛ لجنودهـا شـمال فيلاديفيـا (عمّـان) حيـث تقع جدارا، الحصن المنيع لدولة الديكابوليس.

نحـن جـزء ممـا أنجبـه القـرن العشـرون المـيلادي، الذي ودع العصـر الحجري والكثيـر مـن العتاقـة؛ ليتبع الحداثـة الـتي حلّت بالعـالم مـن تطـور جعـل مـن كل شيء أسـهل ممـا كان عليـه؛ حيـث تنـاسى أبنـاء بـلدتي بـير الذّهـب ومـا حملتـه مـن قصـص وخرافـات لا إقنـاع فيهـا، وخفـت حركـة باصات صيدور وكفر أسد من أمامها، إذ أصبح في كل بيت سيارة

حُطمـت بيـوت اللِـبن والطـين، وتطـايرت مـن بـين قصـب سـقوفها أعشـاش عصـافير السـنونو، وأصـبح معضـمع بيوتهـا حجـرا أبيضـا يتمـيز بقرميـد أحمـر عـلى المـداخل وعـلى الأسـطح، قلـت المزاريـب ومعرشـات الدوالي أمام البيوت.

حيـاة المـزارع أصبحت أسـهل، إذ أصـبح لديـه بكبـات بـدلا مـن الحمـير والخُـرج والقـوادم، ودراسـة بـدلا مـن اللـوح والمـذراة، وعنـد حبـات القمـح توقفت الرحاة التي كانت تطحنها إلى الأبد.

وأصـبحت حبوبنـا تحفـظ في صـوامع، وفي مطـاحن الكترونيـة يطحـن قمـح أراضـينا وحبوبهـا بشـكل أسرع، واسـتقالت الدابـة والقـوادم والقفـة وحجـر درس الزيتـون إلى الأبـد؛ ليحـل مكانهـا معـاصرا آليـة حديثـة، تعمـل بدقـة أكثر، وبجهد بشـري أقل.

لا حطب اليوم يجمع لسهرة ربابة دافئة، ولا لكانون تحمس عليه القهوة أو يشوى على جمره البلوط، والمهباش في ذمة التاريخ، والقليلين ممن وضعوه تحفة في مضافة أبيهم، والغازات إيطالية الصنع على جانبها رخامة تحمل مولينكسا وخفاقة وميكروويفا؛ لتسخين الوجبات السريعة.

حياة المغترب أسهل كذلك، إذ أصبحت بمكالمات فيديو سريعة ومتاحة في كل وقت، بدلا من اتصالات قصيرة مكلفة، ودون انتظار برنامج رسائل شوق مع المذيعة كوثر النشاشيبي، أو رسائل عبر البريد من دولة لدولة، وما بين الرسالة والرسالة فاته الكثير، تغيرت ملامح كثيرة في بلده، وأنجبت النساء كثيرين ممن لا يعرفهم ولايعرفونه، وودع رجالها الكثيرين أيضا.

الدراسة اليوم تختلف كثيرا عما كانت عليه عام **١٩٨٨**، المدارس حديثة، والعلم متاح للجميع، وتناول صِعابه أسهل مما لو كانت الحياة دون إنترنت، ففيه من السرعة منفعة واختصارا للوقت؛ لمن أراد أن يستغله في بناء فكر وخبرة، كنا نحتاج إلى أوقات أكثر للحصول عليها.

حفر بئر مشابهة لبئر أمي أصبح أسرع، وجلب الماء منه بكبسة زر لا تحتاج إلى وجود حبل ودلو، ولا لإخفائها عن المستقي، فالكبسة بمتناول صاحب البئر فقط، ولا يستطيع غيره الاستقاء إلا إذا طُلِبَ منه تشغيل المضخة، التي ربما تضيع شيئا من الماء على أطراف وعاء المستقي، فهي ليست بدقة دلو الجلد الأسود، الذي كنا نشتريه من دكانة العسود، على دوار الجامع العمري في كفرأسد.

رسائل الشتم والقدح عبر الهواتف لا تحتاج الذهاب إلى الدجنية، ولا التسبب بعقوبة ثمانية وأربعين يوما في السجن، وإنما أصبح هناك وحدة جرائم إلكترونية، هي من تتولى كل المحاسبة وجلب المتهم دون أي متاعب للمُشتكي.

الأعراس والأفراح والمناسبات، لم تعد في يوم الجمعة فقط، ولا تحتاج إلى لمبات صفراء ولا لكشافات، ولا لحطب لطهي المناسف، التي أصبحت طبقا من الجاتو أو قطعة من الكنافة... الزفة كذلك تغير مكان تجمعها من أمام مدرسة البنين، رش التوفي والدبكة أصبحتا في قاعات مجهزة بأحدث المعايير، بحضور فرقة أصبحت أساسا لاستقبال العروسين، وزفة سريعة تلقي بهما على لوج أبيض، خلفه إضاءات ملونة ورومانسية بدلا من السجادة الحمراء.

حكم التاريخ الطبيعي على صيدور، ألّا يكون تغير ملامحها الطبوغرافية سهلا، وأن تبقى أسيرة منسية وخلابة حرة... بابها بير الذّهب ومحرابها أبو الشومر، تتنفس هواءها من كل حدب وصوب، تمتلك أودية سحيقة وأخرى خطيرة وغيرها الغامضة، اتسعت بيوتها وازداد سكانها وكبرت شجيراتها، وما زالت تزهو كل ربيع بذات الوقع وذات النفع.

الختـــــــــام

في رحـلة الحيــاة مشـيت، تعــثرت ونهضـت، أخطـأت وأصـبت، نجحـت وأخفقــت، اتهمــت وحوســبت، ظلمــت في منحــى وأنصــفت في آخــر، تعلمــت في أربــع مــدارس، مدرســة التعلــيم ومدرســة أبي ومدرســة أمي ومدرسـة الحيـاة والغربـة، قابلـت الكثـير مـن المواقـف والكثـير مـن النـاس، حادثت الكثيرين ورافقت آخرين، استمعت لأشخاص واستمع لي غيرهم.

أحـدهم يحـدثني عـن نجاحاتـه العمليـة ومسـيرته العلميـة، وآخـر يـروي لي قصـة كسـرت قلبـه، وموجـوع يـروى سـيرته المرضـية وحجـم ألمـه، وغـيره يـروى تفاصـيلا عـن شخصـيته، مـرة يضـحك ومـرة يحـزن، وكُلَّـما أحـس بـأنني مسـتمع مبتسـم أتقبـل وأسـتوعب، كُلَّـما أسـهب بالسـرد، لـيس لأنـه يحبّ نفسه، بل لأنني منحته نوعا من الرضا وحافزا جعلانه يستمر.

اقتبسـت مـن أيام حيـاتي الحلـوة والمـرة، أن أي عـيش رغيـد لا يحتـاج أكـثر مــن فكــر مــتزن، يتقبــل المنطــق ويــرفض أي اعوجــاج، ونفــس قنوعــة تـرضى بمـا كتبـه الله له في السـراء والضـراء، وأن نصـائح الكبـار منجـاة مـن كثـير مـن العـثرات والمـآزق، فهـم يقـدمون نصـيحتهم بحكـم خـبرتهم الأكبـر

ما أن الحياة بلا حُبّ حياة بائسة، حُبّ الحياة وحُبّ الدراسة وحُبّ العمل وحُبّ النفس، هي ما تحفزنا على طلب العلم، وتقبل ظروفنا كما هي، دون إضافة أي ملونات تشوه الحقائق؛ لنتباهى بها أمام الغير فكل شيء على طبيعته سيبدو أجمل، وما زيّن بمصطنعات لن يكون عمره طويلا، وعليك أن تتقبل غيرك كما هو إن همك أمره.

إذ لم تكن تحُبّ عملك ستذهب إليه مثقلا بحمل أنت من صنعه على مقاس كتفيك، وهو أمر لا علاقة لجهة عملك به، لا بأس وإن انسحبت وتركت الشيء لغيرك ممن يحبونه، لا تجبر نفسك على شيء لا تتقبله لأنك لن تبدع ولن تتقدم فيه، بل سيبقى هما كبيرا في حياتك حتى تتقاعد أو تستقيل؛ لذا عليك اختيار المهنة أو التخصص الذي تحبّ حتى تعفي نفسك من ثقل الكواهل.

دروس وعبر كبيرة تمر بنا في حياتنا الاجتماعية والعملية، ركزت فيها على أن الجِلد لا يحُكه إلا أظفر صاحبه، تعلمت أن الطموح والهدف موجودان، وعلي أن أسير بالطريق الصحيح؛ للوصول إليهما ولن توصلني أي طرق ملتوية إلى هدفي، ولا بأس إن تعثرت مرة أو أكثر ؛سأعاود من جديد مرات عدة، لأن إطلاق السهم لأبعد مسافة يحتاج الرجوع للخلف بكل قوة.

أحبطت ولم أكسر، تعرقلت ولم أستسلم بل تابعت مسيري، تألمت وتعافيت، تمروا كثيرا ولم أهتم؛ لأن أذني كانت تصغي؛ لطموحاتي التي ولدت معي، وليس لما يريده غيري الذي لا يعلم ما بداخلي، ولا يهمه ظروفي.

أصعب النصائح... هي تلك التي تأتيك ممن لم تطلب منهم أي استشارة بل تطوعوا من تلقاء أنفسهم ظنا منهم، أنهم أصح منك ويعرفون مصلحتك أكثر منك، وأحيانا تكون النصيحة أو التنظير، ممن لا يملكون ما تملكه أنت من معرفة وخبرة وظروف.

أصفح وأعفو على قدر استطاعتي، لا أرجو من الآخرين شيئا إلا دعوة بظهر غيب، وإن لم يستطيعوا فكف البلاء خير لي ولهم.

كلما أبصرت للماضي وقرأت تلك الصفحات الجميلة فيه، كلما أصررت على حمل رسالة تفيد بأن كل شيء في الكون زائل ذات يوم، الكثير من ملامح البشر هرمت والكثير من معالم المدن تغيرت، ننقسم بكل شيء إلى قسمين، " ضاحكين وبائسين، مستقبلين ومودعين، محبطين ومتفائلين، مؤيدين ومعارضين، أصحاء وأعلاء "

فللّه الحمد على ما جرتْ به المقادير

"أبنائي باسم ومحمد وعدنان وبُنَيّتي جوري "

أنتم جزء يكمل صيدور، ويكملني ويكمل رسالتي في حب العلم والمثابرة والحيد عن اليأس وكلّ مسبباته ، أدعوكم لتذوق طعم كل ما فاتني وفات أمكم في سبيل إسعادكم، وبناء جسر المستقبل أمامكم.

رسالتي لكل قارئ من الشباب ...

كن جميلا ، صبورا ، طموحا ، متفائلا

لا تكن كسولا اتكاليا " فـــلا حلم يتحقق دون هدف ولا هدف يحرز دون طموح " ولا طموح يحقق إلا بالجد والغيرة والاجتهاد .

سلام على قريتي ورحم الله جميع الأموات ممن ذكروا في رواياتي

تمت بحمد اللّه

تقبلوا تحياتي / حسام عبد المنعم بشايره

27 / 7 / 2023

المؤلف : حسام عبد المنعم البشايره
النوع : الروايات العربية / القصص الاجتماعية / الأدب العربي / العصر الحديث
تنسيق وإخراج : حسام بشايره

بيانات الناشر : عمان / حسام عبد المنعم عبد الرحيم البشايره ٢٠٢٣
الأردن / عمان ، ٢٠٢٣
الطبعة : الأولى
رقم الإيداع : (2023/8/4369)
رقم التصنيف : 813.83
الترقيم الدولي: (ردمك) ISB 978 - 9923 - 0 - 0770 - 9

طباعة: دار الخليج للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

bashairehh5@gmail.com

لا يجوز إعادة نشر هذه المادة أو طباعتها أو استخراج أي جزء منها لغايات الطباعة إلا بأذن خطي من المؤلف وتحت طائلة المسؤولية

الكاتب في سطور

حسام عبدالمنعم البشايره

أردني ، مواليد إربد عام ١٩٨٢

من قرية صيدور (إحدى قرى لواء الوسطية في مدينة إربد)

صحفي وإعلامي مقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة (أبو ظبي)

كاتب صحفي و محرر أخبار

مذيع أخبار إذاعية

معد برامج وتقارير تلفزيونية وإذاعية

مقدم برامج إذاعية

معلق صوتي VOICE OVER

مـــــن مؤلفـــات الكـــــاتب

واسمكِ المُذاب — بير الذهب — عادي جدا

اسم الكتاب: **بير الذهب**

المؤلف:

حسـام عبد المنعم عبد الرحيم البشايره

E-mail:

bashairehh5@gmail.com

الطبعة: **الأولى ٢٠٢٣**

الحقوق:

©جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم التصنيف: **813.083**

الواصفات:

الروايات العربية // القصص الاجتماعية// الأدب العربي// العصر الحديث

الترقيم الدولي (ردمك):

ISBN: 978 – 9923 - 0 – 0770 - 9

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية:

(4369 /8/2023)

تنسيق وإخراج: **حسام بشايره**

طباعة: دار الخليج

للنشر والتوزيع / الأردن - عمان - العبدلي

دار الخليج للنشر والتوزيع

الأردن: عمـــان، العبدلي تلفاكس: 00962 6 464 7559

daralkhalij@gmail.com daralkhalij1998 daralkhalij

تتوفر أصداراتنا على: جملون Google play

بير الذهب

حسام بشايره

حكاياتُ قرية وقصةُ حياة

THE WELL OF GOLD

تابعوني عبر مواقع التواصل الاجتماعي .. الإذاعي حسام بشايره

عـــام 1982 جئنا على هذه الحياة لا نحمل سوى بكاء طفل رضيع، ما كان يعلم أن هناك عتبات بيوت سُدّت أبوابها، وصدأت أقفالها، تآكلت أطراف شبابيكها، وبهت زجاج بندات أبوابها

عتبات هجرت كراسيها من جالسيها إلى حيث لا رجعة، لكن الحياة تواصل أدراجها دونهم، وكأنهم لم يكونوا، تركونا خلفهم كما تركوا أبناءهم من آبائنا وأمهاتنا

بير الذهب

حكايات قرية وقصة حياة

Jordan-irbed-saidour